FIFA WORLD CUP
RUSSIA 2018

رواية

خوان خوسيه ميّاس

من الظل

ترجمها عن الإسبانية: أحمد عبد اللطيف

خوان خوسيه ميّاس

من الظل

ترجمها عن الإسبانية: **أحمد عبد اللطيف**

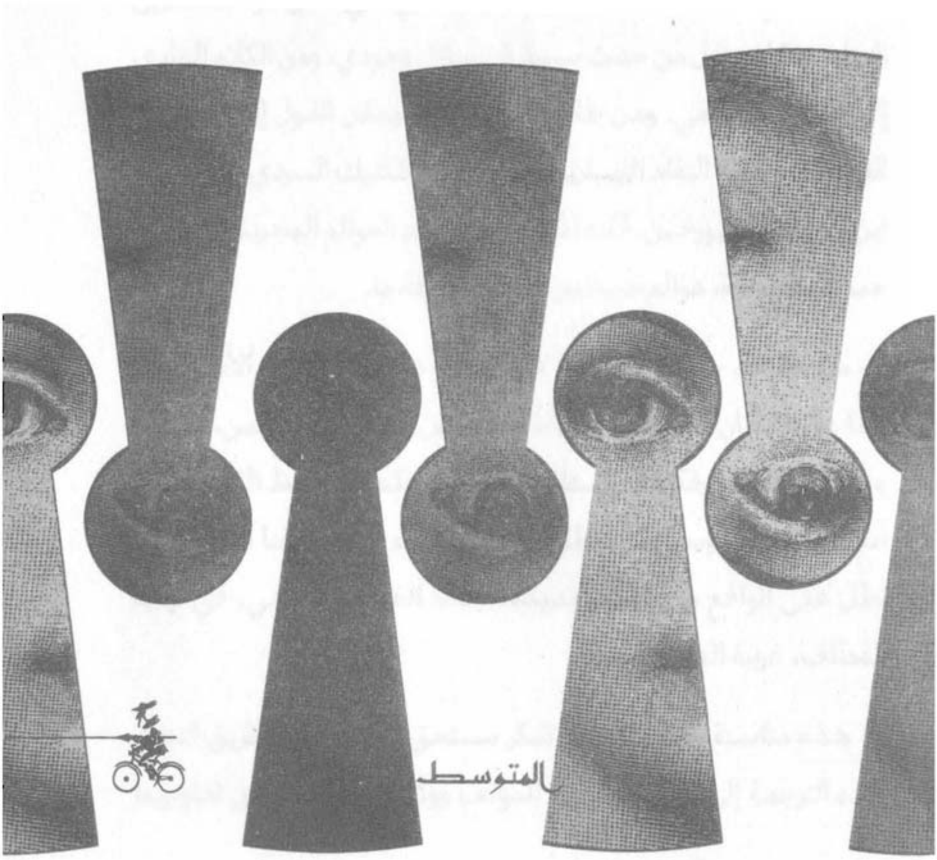

من الظل

حقوق الترجمة والنسخ © ٢٠١٧ **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Desde La Sombra *by* "Juan José Millás"
Copyright © Juan José Millás, 2016
Arabic translation copyright © 2017 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: خوان خوسيه ميّاس / المترجم: أحمد عبد اللطيف
عنوان الكتاب: من الظل
الطبعة الأولى: ٢٠١٧.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-06-2

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

كلمة المترجم

منذ ما يزيد على أربعين عامًا يحفر الكاتب الإسباني خوان خوسيه مياس في منطقة خاصة جدًا به، منطقة يتحول فيها اليومي والعادي إلى غريب وملفت للانتباه. هو يعتقد، في حياته كما في كتابته، أن هذه التفاصيل الصغيرة هي الطريق الأصعب لفهم العالم، لكنها في نفس الوقت الطريق المتاح. هكذا ينتقل من حدث بسيط إلى سؤال وجودي، ومن الكلام العادي إلى الطرح الفلسفي. ومن خلال تتبع كتاباته، يمكن القول إنه "مايسترو الغرابة" كما يلقبه النقاد الإسبان، وأحد أساتذة التكنيك السردي. هو بالطبع ابن بار لكافكا ولبورخس، لكنه استطاع نقل هذه العوالم المجردة إلى عوالم حسية وملموسة، عوالم قريبة من كل منا بطريقة ما.

من هنا جاء حماسي لترجمة "من الظل"، عمله الأكثر أرقًا، الأكثر تعبيرًا ربما عن الإنسان المعاصر، بكل ما يحمله من وساوس وهواجس، بكل ما يحمله من عبث وفكاهة. وأسئلة هذا العمل، كما سيلاحظ القارئ، هي أسئلتنا جميعًا، ومخاوف البطل وآماله لا تبتعد عن مخاوفنا نحن. لكنها تطل على الواقع من نافذة جديدة، نافذة الغرابة التي هي، في نهاية المطاف، غرابة العالم نفسه.

هذه مناسبة جيدة لتوجيه شكر مستحق لمن سهّل الطريق لتصل هذه الترجمة إلى القارئ: أولهم المؤلف ووكيله الأدبي لحسن تعاونهما

وإزالة العقبات، وثانيهم "بيت المترجم La casa del traductor de Trazona" حيث استضافوني أثناء إنجازي ترجمة الفصول الأخيرة، وكانوا حريصين على خلق جو من الراحة لي.

"قصص الحُبّ كلّها ليست إلا قصص أشباح"

ديفيد فوستر والنس

-١-

كان سيرخيو أوكان يسألُ دميان لوبو أيّ سمكة تُعبِّر عنه:

- سمكة القرش أم السردين؟

- القرشُ لا تُعبِّر عنّي، ينقصني عدوانيّتها. أنا، في النهاية، مجرّد شخص مليء بالوساوس. ولا تُعبِّر عنّي السردين. لا أعرف، ربمّا أُشبهُ الحنكليس.

- ولماذا الحنكليس؟

- لأنها ليست من القطيع، وتتكيّف مع الطبيعة، وتعيش في مياه استوائية. وأنا حسّاس للبرد.

لم يكن لـ سيرخيو أوكان أيّ وجود، إنه محض صورة مُتخيَّلة، ابتدعَها دميان لوبو، ليُكلِّم نفسَه من خلالها. كان يحكي له كلّ ما يحدث في لحظة حدوثه عبر لقاء مُتخيَّل، يبدأ من الصباح، وينتهي في المساء. هذا اللقاء كان يُذاع بالتلفزيون، ليشاهدَه العالمُ أجمع، بترجمة فورية في تلك البلدان التي لا تتحدّث الإسبانية. وبحسب خيال لوبو، كان يُذاع على الهواء مباشرَة، ولجمهور في الاستوديو، ويتمتّع بحضور مستمعين، لا حصر لهم.

في البداية، لم يكن أوكان إلا صوتًا داخليًا بالكاد، بلا وجه ولا تاريخ.

لكنْ، مع مرور الوقت، مَنَحَهُ دميان هيئة جسدية، وسيرة مختصرة. وُلد أوكان في مدريد، وكان ابنًا لدبلوماسي أمريكي، من هنا يأتي لقبه. كان في الخامسة والأربعين، من الجنس الآريّ، وطوله متر وثمانون. ورغم أنه كان نحيفًا، إلا أن كرشه كان أعلى قليلاً من صدره. عادةً ما كان يرتدي بدلًا سوداء، وقمصانًا بيضاء وربطاتِ عنق غريبةً بعض الشيء، يشبكها بالقميص بمشبك مُذهّب. كان يُزرِّر زرّ البدلة الأوسط حين ينهض، ويفكّه كلّما قَعَدَ، بإيماءة مَنْ نُسمّيهم بالمنفردين، هؤلاء الذين ينبهر دميان بأناقتهم.

كانت جاذبيّته تتركّز تحديدًا في عينَيْه، بلونهما الأصفر؛ وفي فمه، بشَفَتَيْنِ مُكْتَنِزَتَيْن، تنتأ بينهما لثّة ضخمة عند انفراجهما، كأن لديه أسنانًا أكثر من المعتادة. أما أنفه، المضبوط والدقيق، فلم يكن مُلفِتًا بين قسمات الوجه. وجبهته، العريضة والناعمة، كانت تمتدّ لمدخلَي شعره العميقَيْن، كأنها تمُشِّطه للخلف دون موارية.

- منذ أكثر من شهرَيْن، وأنتَ بلا عمل. منذ طردُوكَ، بلا رحمة، من المؤسّسة التي عملتَ بها لأكثر من خمس وعشرين سنة - قال له أوكان.

- وبدأتُ عملي بها منذ كنتُ في الثامنة عشرة - أضاف دميان.

- لابد أن ذلك كان قاسيًا. قلْ لنا: كيف ترى الرأسمالية بلا روح؟

تأمّل دميان لوبو لثوانٍ، ثمّ أجاب بأنه ذاب في الرأسمالية، كما تذوب الأسماك في المياه.

- لا أفهم كيف يحدث ذلك؟- أضاف - أنا مثل الأخطبوط لا يحتاج لفَهْم المحيط حتّى يعيش فيه.

- وفي هذا النظام البيئي، يا سيّدي لوبو، أيّ سمكة تُعبرِّ عنكَ: سمكة القرش أم السردين؟

- القرش لا تُعبرِّ عنّي. ينقصني عدوانيّتها. أنا في النهاية مجرّد شخص مليء بالوساوس. ولا تعبّر عنّي السردين. لا أعرف، ربّما أُشبِهُ الحنكليس.

انفجر في الضحك جمهور الاستوديو. كانوا يضحكون باستمرار من تجاوزات دميان التي لم تكن ظريفة بالضرورة. لكنه، إن كان يتخيّلهم يضحكون، فلابد أنهم يضحكون، ماذا بوسعهم أن يفعلوا؟!

الآن، فيما تدور المقابلة المُتخيَّلة مع أوكان، تقترب يد دميان إلى فمه بفنجان شاي؛ لا يزال ساخنًا. كان يجلس في أقصى البار بكافتيريا ضيّقة ومظلمة، مَنفيًا بعض الشيء عن باقي الزبائن، مثل سمكة حنكليس مختبئة في ثقب بعمق البحر. كان قادمًا لتوّه من الغداء في بيت أبيه وأخته، بشارع أرتورو سوريا، وقرّر أن يتنزّه قليلاً قبل ركوب المترو، والعودة إلى بيته.

ذكّرته إشارة أوكان إلى "الرأسمالية بلا روح" باللقاء العائلي الذي بدأ يحكيه للمستمع المُتخيَّل، بينما يبرد الشاي.

- تعيش فيرا، أختي الكبيرة الصينية، مع أبي.

- وكيف حَدَثَ ذلك؟- سأل أوكان.

- أن تعيش مع أبي؟

- لا، أن تكون صينية.

- آه، تبنّاها أبواي لمّا كانت رضيعة، لأنهما عجزا عن الإنجاب، وبعدها بعامَيْن، حملت فيَّ أمّي دون توقُّع، وظَهَرْتُ أنا.

- عندما لم ينتظراكَ؟- سأل أوكان.

- بالضبط، عندما لم ينتظراني.

بقي الجمهور في البلاتوه شغوفًا. لابد أن حلقة البرنامج كانت تتسلّل للقناة كتسلُّل السمكة للشبكة. حَدَسَ دميان لوبو وسيرخيو أوكان بذلك، وتصرّفا كما المعتاد. سَمَحَ المذيع للكاميرا أن تتسلّط على عينَيْه الصفراوَيْن اللتَيْن تبثّان توهّجًا، يُذكّر بأشعّة الشمس العاصفة، وأمر الضيفَ بإيماءة أن يواصلَ الحكايةَ.

- كما أقول لكَ - واصل دميان لوبو بعد وقفة ملأى بالتّوتّر- أختي أكبر منّي بعامَيْن، هكذا حين كنتُ في الرابعة عشرة، كانت هي في السادسة عشرة، وقد صارت فتاةً صينيةً مكتملةَ الأنوثة.

في هذه اللحظة، سار بين الجمهور همهمةٌ، تسبق الضحكاتِ، أو على الأقلّ، الابتسامات، وحدس دميان لوبو إيماءة موافقة في نظرة سيرخيو أوكان، وحَسَب بكلّ سرعة في أيّ اتّجاه يجب أن تسيرَ الحكاية.

- وبالتالي، لكَ أن تتخيّل: كنتُ أنا في قمّة مراهقتي، وهي في قمّة اكتمالها ... كانت تخرج من الحمّام، لا يغطّيها إلا منشفة، وتعبر من الصالة شبه عارية ...

- ألم تكنْ تشغلُكَ فكرةُ أنها أختُكَ؟- قاطعَهُ سيرخيو أوكان، ليقمعَ بداياتِ الضحك الأولى.

- رسميًا، كانت أختي، أنا معكَ، لكنها لم تأتِ من بطن أمّي، ولا تدخّلتْ سوائلُ أبي في خلقَتِهَا. بالإضافة لذلك، كانت تنتمي لسُلالة

أخرى، ولم يكن لأصولها في الحقيقة أيّ علاقة بأصولي. في هذه الحالات، لا يمكن أبدًا وصفُ رغباتي بأنها محارمية، ولا رغباتها كذلك.

- وهل كانت أيضًا منجذبةً لكَ؟

- لا أعرف إن كان انجذابًا، الحكاية أنها منذ صغري بدأتْ تُداعِبُ عضوي.

انفجرَ الجمهورُ في ضحك، لم يستطع المذيعُ قَمْعَهُ، ولم يتخلّ دميان عن جدّيّته، بما أن الجمهور يضحك باستمرار. كان يعرف أن الجدّيّة تزيد تأثيرات حديثه الكوميدية. فكّر في تلك اللحظة أن البرنامجَ لابد يحقِّق أعلى ترِند له.

- بدأتْ تداعبُ عضوَكَ؟! ...- كرّر سيرخيو أوكان في النهاية.

- بالفعل، منذ وعيتُ على الحياة وأنا أراها هناك، تطلب منّي أن أُنزِلَ البنطلون، لتداعبَهُ. في بعض الأحيان، كانت تأتي إلى غرفتي، وتُقلِّعني البيجامةَ بنفسها. كانت تمُسكُ به، تُحرِّكه يمينًا ويسارًا، تعتصرُهُ بين يَدَيْها، ثمّ تضعُهُ في فمها.

تقاطعُهُ ضحكاتُ الجمهور مرّة أخرى، فيصمت، لكنه هذه المرّة يضيف لإيماءة جدّيّته المعتادة تعبيرًا بالاستغراب مدروسًا جيّدًا، كأنه لا يفهم سبب الضحكات.

لمّا هدَّأ سيرخيو أوكان المستمعين، وكان مثلهم يضحك من قلبه، واصل دميان لوبو:

- كانت تحبُّ أن تصحَبَني دائمًا كلّما رحتُ للحمّام، لتُمسكَ به بينما أتبوّل. كانت مَهووسة.

- وماذا كان تعليق أبَوَيْكَ؟

- لم يطّلعا على الأمر. هي كانت تعرفُ متى تفعل ذلك.

- وفيما كنتَ تفكِّر وقتَها؟

- لم أفكّر في شيء، بدأتْ هذه الألعاب في سنٍّ صغيرة جدًا، وصارت بالتالي أمرًا مألوفًا.

- ولم تتوقّف أبدًا؟

- أبدًا، لكن نتائجها، بالطبع، كانت تختلف من سِنٍّ لسِنٍّ.

ضحكات الجمهور الآن متقطّعة حتّى لا يفوتهم أيّ كلمة من كلمات المحاور.

- لكنْ، لماذا تحكي لي هذا كلّه؟- سأل أوكان.

- لأن إشارتكَ إلى الرأسمالية بلا روح ذكَّرتْني بأنني تغدّيتُ اليوم مع أبي وأختي.

- ...؟

- في لحظة معيّنة، ربمّا كنتُ في الثانية عشرة أو الرابعة عشرة، لا أذكر تحديدًا كم كان عمري، بدأتْ فيرا، أختي الصينية، واسمُها، بالمناسبة، ديسيريه، تشير إلى عضوي، وتُسمّيه "عضو بروح".

كان المذيعُ أوّلَ مَن انفجر في الضحك هذه المرّة، وتبعه الجمهور بقهقهات واسعة. احتفظ دميان بهدوئه، وبقليل من الارتباك، مراقبًا

البلاتوه بنظرات، تنتقل من جانب لآخر، كأنه يتساءل ماذا كان يحدُث للفنّيّين وراء الكاميرا.

- كان عضوكَ إذنْ "عضو بروح"- قال أوكان، لكنْ، بضحك متقطّع- بالتضادّ مع عضو مَنْ؟

تردّد دميان لوبو، ثمّ قال:

- مع عضو أبي، أعتقد. أو ربّما أعضاء الرجال، بشكل عام.

الدراماتيكيةُ التي نطق بها العبارةَ سمّرت الجمهور في صمت كثيف مثل الضحكات السابقة.

- لن أطلبَ منكَ أن نراه - تكلّم أوكان في النهاية محاولًا أن يُقلِّل من أهمّيّة الحَدَث -، لكنْ، لابد أن ثمّة ميزة خاصّة، لتصفَهُ أختُكَ بأنه "بروح".

- بوجه شخص طيّب.

- أختكَ؟

- لا، عضوي.

الآن انفجرتْ من جديد قهقهات الجمهور، وارتسمتْ على ملامح أوكان إيماءة راحة، كأنه عاد إلى أرض، يعرفها.

- معذرة على الضحك - قال الشومان بعد أن انتظر استعادة الجمهور لنفسه -، لكننا لم نسمع في حياتنا عن عضو بروح، وعضو دون روح.

توقّع دميان أن المقابلةَ حقّقت نجاحًا، غير أنها وَصَلَتْ لقمّةٍ، من

الصعب تجاوُزها، قرّر، بالتالي، أن يضيفَ جرعة درامية أخرى، ليُقلّل من التّوتّر.

- لو كان أبي يشاهد هذا البرنامج، لمات من الخجل - قال.

- لماذا؟- سأل أوكان.

- لأنه يكره التلفزيون الزبالة. إنه لا يشاهد إلا Canal +، وأحد المشتركين فيها منذ بداياتها.

- وهل يمكن أن يعدّ ما نفعلُهُ - أنت وأنا - تلفزيون زبالة؟

- نعم، بالتأكيد، بسبب محتواه والخفّة التي نؤدّي بها.

- قلْ لنا أشياء أخرى عن أبيكَ.

- أبي أستاذ كرسيّ بالجامعة، وناقد سينمائي شهير. إنه مثقّف، وبيته فائض بالكُتُب التي كانت تُخيفني وأنا صغير.

- لماذا؟

- لأنني في كلّ مرّة أمرُّ بجوارها كانت تتوسّلني أن أقرأها.

- هل هذا مجاز؟

- لا، لا، كان بقدرتي أن أسمعَها وهي تهمس لي: "اقرأني، من فضلكَ، اقرأني". الحقيقة أن أبي كان يختبئ في ثغرة ما من المكتبة، وينادي بصوت غريب: "اقرأني، من فضلِكَ، اقرأني"، وهي العبارة التي دَخَلَتْ رأسي، وتظهر في كلّ مرّة أمرُّ بجانب كتاب.

- وهل كانت هناك كُتُبٌ تخيفكَ أكثر من كُتُب أخرى؟

- كنتُ أتجنّب دومًا منطقةَ الأدب الروسيّ في القرن التاسع عشر. كانت الكُتُبُ تنطقُ "اقرأني" بصوت أجشّ مغلّف بالضيق.

- وهل قرأتَها؟

- أبدًا، أنا لا أقرأ إلا كُتيّبات الاستخدام وكُتيّبات التعليمات.

- تعليمات بماذا؟

- بكلّ شيء، بكيفية تشغيل الأدوات الكهربائية، مثلًا، والماكينات بشكل عام. أنا مُغرَم خصوصًا بقواعد ألعاب المنضدة.

في تلك اللحظة، مستغلًا نجاح الإجابة، أعلن سيرخيو أوكان دخولَ فقرة إعلانية، فعاد دميان لوبو إلى مكانه بالكافتيريا، حيث برد الشاي بما يكفي ليتناوله. تخيَّلَ ما قد تقوله جرائد العالم أجمع في الصباح التالي في نَقْدها للتلفزيون. ربّما، كما حَدَثَ في مناسبات أخرى، تمتلئ الصفحات المتخصّصة حتّى تشغل الصفحة الأولى. "اقرأني، من فضلِكَ"، كان مانشيتًا جذّابًا للَفْت انتباه الجمهور.

حين أوشك على الانتهاء من الشاي كانت الفقرة الإعلانية انتهتْ، وعاد البرنامج. انتقل دميان ذهنيًا، ليواصل سَرْدَ أشياء عن نفسه. قال إن أبيه نام في مكانه بعد الغداء العائلي وهو يشاهد على Canal + حوارًا لـ إنياكي جابيلوندو مع مخرج سينمائي شهير.

- أبي يعشق إنياكي جابيلوندو - قال – لأنه ...

- نعم - قاطَعَهُ أوكان كأنه غارَ من الصُّحُفي الشهير -، لكنكَ لم تحكِ لنا شيئًا عن أمّكَ.

- أمّي كانت مُلحَقًا لأبي، امتدادًا له، هكذا كنتُ أراها. كان أبي بالنسبة لها مثلما هو إنياكي جابيلوندو، بالنسبة له. قبل أن تموتَ منذ عشرة أو أحد عشر عامًا كانت مُدرِّسة الكيمياء بمدرسة ثانوية حكومية، وأعتقد أنها كانت مُدرّسة جيّدة، لكنها بمجرّد أن تعود للبيت تُحاكي أبي، بحيث لم أجدْ وسيلة لتمييزها عنه. أعتقد أنها ماتت، لأن موتها كان رغبته، ليبقى على انفراد مع أختي الصينية.

- أتقول إن أبيكَ كان يريد الانفرادَ بأختكَ؟

- نعم، لكني لا أريد التّطرّق لذلك.

حكى دميان لوبو، من أجل تخفيف خيبة أمل المحاوِر والجمهور، أنه في ذات يوم، بينما كان أبوه يرقد أمام شاشة التلفزيون، انسحبَ مع أخته الصينية إلى غرفتها.

- لتلعبَ مع الـ "عضو بروح"؟- سأل أوكان بسخرية.

- بالضبط - أجاب دميان بإطناب في الألعاب الجنسية التي مارساها بعد الغداء العائلي، ليمنح الجمهور متعةً ما.

حين بدأ في الوَصْف التفصيلي لفَرْج أخته الصينية ومهبلها، لابد أن أوكان تلقّى أوامر عبر السمّاعة بتغيير الموضوع، إذ دون مقدّمات سأل:

- وفيما كانت تعمل المؤسّسة التي طردتْكَ؟

- في المقاولات والتحسينات. وأنا كنتُ المسؤول عن الصيانة - أجاب دميان.

- مسؤول عن الفيش والسباكة وهذه الأشياء؟

- فكرتُكَ عن هذا العمل فقيرة جدًا، يا سيّد أوكان. لتكون رئيسًا للصيانة، خاصّةً في أيّامنا هذه، يتطلّب أن تتمتّع بقدرة فنّيّة عالية المستوى.

- إذنْ، ما التدريب الذي حصلتَ عليه، يا دميان؟

- دَخَلْتُ المؤسّسة في سنٍّ صغيرة كصبيّ في البداية، إذ درستُ ضدّ رغبة أبي في التدريب المهني في قسم الكهرباء، وكنتُ ماهرًا جدًا في العمل اليدوي. ثمّ اكتسبتُ المهارة مع العمل اليومي والعملي حتّى صرتُ رئيسًا لمهندسين شباب، لديهم الكثير من المعرفة النظرية، لكنهم عاجزون عن حلّ مشاكل، تستوجب ردودًا سريعة. على أيّ حال، حين بدأتُ، لم يشترطوا لهذه الوظيفة شروط الأكاديمية نفسها التي يطلبونها الآن.

عند هذه النقطة، أنهى دميان الحوارَ مع أوكان (لسبب ما، لم يتمكّن من التركيز في أحلام يقظته المعتادة)، وعاد إلى الواقع. كان زبائن الكافتيريا، الذين زاد عددهم، يجلسون في الطرف البعيد عنه من البار والقريب من الباب. عاد ليفكّر في نفسه كسمكة حنكليس مختبئة بين صخور مرجانية، في وَضْعها كفريسة، ربّما لتحميَ نفسها من سمكة مفترسة.

- وفيما كان يكمن عملكَ بالتحديد؟- سمع أوكان يسأله من البُعْد الآخر.

- كنتُ أخطّط أنشطةَ فريق العمل، أحدِّد المهامَّ، أراقب حالة المنشآت، أقوم بطلبيات المواد والعدد، وأقدِّر تكلفة الصيانة - أجاب عائدًا بسرعة إلى البلاتوه.

- إذنْ، كانت وظيفة متعدّدة النشاطات.

- نعم، وتتطلّب معرفة أساسية بكلّ فروع النشاط الصناعي: البناء، الدهان، الكهرباء، السباكة ... وكذلك الكمبيوتر. أنا مُستخدِم إنترنت مُتقدِّم.

- والسبب؟

- من ناحية - قال - بفضل البورنو الآسيوي. أقضي حياتي في البحث عن فُرُوج آسيوية في الشبكة العنكبوتية.

احتفى الجمهور الحاضر في الاستوديو، بعد أن تسرّب له المَلَل من الحديث في تفاصيل العمل، بجرأة دميان مرّة أخرى، فيما انتبه الأخير، بدوره، إلى لمعان الفرحة في عينيّ مُقدّم البرنامج الصفراوَيْن. أحيانًا يبدو عسيرًا الاحتفاظ بالجمهور في مستويات، اعتاد عليها أوكان.

- فُرُوج آسيوية؟ - كرّر الشومان.

- إنها عادة مرتبطة بعلاقتي بأختي الصينية التي قليلاً ما ألتقي بها. منذ عام تقريبًا، لم أكنْ قد زرتُ أبي، ويستفزّه أن يشمّ في ملابسي رائحة دخان. دائمًا ما يُومئ بإيماءة، تَقزُّز، كلّما اقتربتُ منه، لأقبّلَه. يستفزّه كذلك أني أشبهه جسديًا.

- وهل تدخّن كثيرًا؟

- لا، لكنها سجائر "قامِل"، وعبقها نفّاذ. بالفعل، سأُقلع عن التدخين.

- متى؟

- في وقتٍ ما. سأقول لقد تشبَّعتُ منه، وسأُقلع عنه، فمجرّد أن أقرّر شيئًا، لا أجد صعوبة في تنفيذه.

- كنتَ تقول إنكَ مُستخدِم إنترنت مُتقدّم.

- نعم، من جانب لما قلتُه لكَ، ومن جانب آخر، لأني تلقّيتُ دورات في البرمجة واستعادة الملفّات. من جانب آخر أيضًا، لأني فضوليّ، وعلّمتُ نفسي ألا أترك أيّ أثر لبحثي، إذ أبحث كثيرًا من كمبيوتر المؤسّسة.

انتزعَهُ ضجيجُ مكنة القهوة من أحلام يقظتِهِ التلفزيونية، وكسَّلَ أن يعود مرّة أخرى. تترك فيه النجاحات الكبيرة شعورًا ما بالاكتئاب.

نادى للجرسون، ودفع الشاي، وخَرَجَ من الكافتيريا، ليدخّن سيجارة. كان يتحرّك بالشوارع مثل سمكة بمياه المحيط العميقة، مُتّبعَة المسار الخطأ، الزجزاجي، لتتجنّب الاحتكاكَ ببقية السمكات التي تتقاطع معها.

في أثناء ذلك، مرّ أمام مركز تجاريّ، يعلنون فيه عن سوق للإنتيكات لصالح جمعية "طفولة بلا بيت". دَخَلَ لتزجية الوقت، مثل سمكة حنكليس، دَخَلَتْ في ثغرة جذّابة، صادفتْها في طريقها، وتحقّق أن ستاندات السوق تشغل جزءًا كبيرًا من مساحات المركز التجاري الخالية. فكّر أنه لو كان رئيس الصيانة لتلك المنشأة، ما كان ليسمح بهذا الزحام لنقاط البيع التي تُعيق الدخول لمخارج الطوارئ.

على مناضد البيع المرتجلَة، المكسوّة بمفارش غالية للبيع أيضًا، كانت معروضة ساعات قديمة، سلاسل، علب للسجائر، كوليهات، براويز، أساور، خواتم ... وذهب كثير، وفضة كثيرة كذلك، وهدايا غزيرة من أزمنة أخرى، سربت السكينة لنَفْس دميان المضطربة بمجرّد تأمّلها.

حينئذ اكتشف في أحد المعروضات شيئًا لفت انتباهه: دبّوس ربطة عنق مُذهّب في مركزه حرفا S.O محفوران.

Sergio O'Kane، فكّر دميان بابتسامة. كان مُعلّقًا بالدبّوس ملصقٌ دائريٌّ صغيرٌ جدًا، يحوي ما يبدو أنه الرَّقْم المرجعيّ. فكّر دميان، دون أن يتجرّأ على لمسه، أن الوجه الآخر ربمّا يحوي السعر.

بعد اكتشافه المثير، واصل السير متموّجًا في المعرض الذي يُشبهُ قليلاً السوق الغالي، دون أن يُركّز كثيرًا فيما يتقاطع مع خطواته. كان مشغول الذهن بصورة دبّوس ربطة العنق.

- لماذا فكّرتَ في سرقته؟- سأله سيرخيو أوكان.

- أعتقد أن الرَّفْدَ من العمل وَضَعَني على جانب الخطّ الآخر- قال دميان.

- هل تعاني من مشاكل اقتصادية، يا سيّد لوبو؟

- حتّى الآن لا. حصلتُ على تعويضٍ كافٍ وبَدَلَ بطالة لمدّة عامَيْن، بالإضافة لبعض المدّخرات. لكنْ، أن يرفدوكَ وأنتَ في الثالثة والأربعين لا يُشبهُ إلا الذهاب إلى العَدَم.

- هل يمكن أن نقول إن السرقة تمثّل شكلاً من أشكال الانتقام من النظام؟

- ربمّا نعم. بالإضافة، كنتُ أودّ أن أقدِّم لكَ هدية شخصية، وصادف أنكَ واحد من أشخاص قليلين، لا يزالون يستخدمون دبّوسًا لربطة العنق. وكان مُبهِرًا، إذ إنه، كما قلتُ لكَ، محفور فيه أوّل حرفَيْن من اسمكَ.

في هذه اللحظة، وقّف دميان لقاءَه المتخيَّل مع الشومان، وعاد إلى الواقع، بإرادة أن يتحصّل على الدبّوس، بطريقة أو بأخرى. في النهاية، اختار طريقة السرقة، إذ عندما عاد إلى المعرض، لم يجدْ أحدًا بالقرب من المصرف، والبائعتان اللتان اهتمّتا به من قبل - سمكتان مفترستان كبيرتان، بشعر مشدود - كانتا بظهرَيْهما تتناقشان حول الوَضْع الأنسب لإبريق من الكريستال، فمُهُ مَطليّ بالفضة. اعترف دميان لوبو، ردًا على سؤال سيرخيو أوكان، بأن كلّ شيء حَدَثَ بسرعة جدًا، وببطء جدًا، في الوقت نفسه.

- خَرَجَتْ يدي خاويةً من جيب البنطلون، وعادت إليه بالدبّوس، بحركة تشبهُ حركة لسان حرباء، يقبض على فراشة.

بعد السرقة، واصل السيرَ، بوجه محايد. وإذا جرى كلّ شيء حتّى تلك اللحظة في بُعْد، فَقَدَ فيه الزمنُ نسبتَه المعتادة، فما إن ابتعد عدّة خطوات حتّى استعادت الثواني إيقاعَها الطبيعي، رغم أن إيقاع قلبه تعرّض لخَلَل مَن تعرّضه لصدمة. ثمّ خفّ تأنيب الضمير بعد الندم على السرقة، وحلّتْ محلّه موجةٌ من الغرور. امشِ على مهلِكَ، قال لنفسه، وازِن الخطوةَ، لا تُثِر الشبهاتِ.

في أثناء ذلك، نبَّهتْه رؤيتُه البانورامية لوجود خطر. لمّا أدار رأسَه قليلاً، اكتشف وجود فرد أمن، لابد قد شاهد السرقة، والآن يتبعه في الخفاء، فكّر، حتّى يتحدّث معه عندما يقترب من مكان قليل الزحام. إنهم لا يريدون فضائح، قال دميان لنفسه. واكتسب الزمنُ من جديد حالَ فقاعة، وَجَدَ نفسَه مقيّدًا بها، وفيها كانت الثواني، التي تتغيّر باستمرار، تتعايش لا مع وساوسه الأخلاقية، بقدر ما تتعايش مع الرعب من القبض عليه.

- تخيّل - قال لسيرخيو أوكان - أن يقبض عليّ متلبّسًا. فكّرتُ في زملائي في المؤسّسة القديمة، في أبي، في جيراني، في أختي الصينية ...

توجّه دميان إلى أحد المصاعد، حيث حَسَبَ أن الزحام قد يعوق حركةَ المراقب، وحاول الذوبان بين الأجساد الأخرى. غير أنه بعد قليل، وَجَدَ الحارسَ بجانبه.

- تعال لنحلَّ المسألةَ دون شوشرة - قال له رجل الزّيّ الرسمي مبتسمًا-. اتبعني فحسب.

- إلى أين؟

- إلى المكتب، سنُنجز إجراءً فقط.

- أنا لم أفعلْ شيئًا- قال دميان.

- عظيم، لن نتأخّر، إذنْ.

ابتعد الحارس عن الجموع التي كانت تحيط بالمصعد، متحقّقًا من أن دميان يتبعه بخضوع. عبرا من أمام محلٍّ لأدوات التجميل، من أمام محلٍّ للهدايا، من أمام مطعمٍ ياباني، ومن أمام محلٍّ ملابس للسّيّدات. كان دميان يلتزم التأخّر قليلاً عن الحارس، ويراقب بسرعة، كأنه تحت الماء، المشاهدَ التي تحدث على الجانب الآخر من الفترينات. في أثناء ذلك، وعند العبور بجانب سلّم، قفز بتهوّر نحو الأسفل في لحظات حاسمة، محقّقًا انتصارًا على المراقب الذي لم يتوقّع هذا الفعل.

هبط السّلّم أربع درجات في أربع درجات حتّى وَصَلَ مسطحًا، له باب حديدي، فدفعه بعنف صامت. خلف الباب، كان ثمّة مرأب للسّيّارات، تحوّل أيضًا لسوق مليء بالموبيليا، وأشياء أخرى قديمة.

في محاولته لتجنّب لَفْت انتباه الجمهور، تمكّن من الاختباء خلف خزانة ضخمة، ومن هناك، شاهد فَتْحَ الباب الحديديّ مرّة أخرى، ليمرّ منه المراقبُ الذي اتّبع، بالتأكيد، وبحركات متوتّرة جدًا، بروتوكولَ السيطرة المتعارَف عليه للمواجهة في مثل هذه الأحوال. مَسَحَ المراقب المكان بنظرة في الوقت الذي كان يكلّم أحدًا بالميكروفون المعلّق بكتفه. ثمّ توجّه إلى يساره تاركًا يمينَه لـ لوبو، الذي انتقل من مكانه، ليخرج من إطار نظر المراقب، فوَجَدَ نفسَهُ في الجزء الأمامي للخزانة، ففتح البابَ الرئيسَ، ودَخَلَ، ليختبئ بداخلها بعد أن تحقّق سريعًا أن أحدًا لم ينتبهْ لوجوده.

-٢-

في وسط الظلام، قَمَعَ دميان أنفاسه حتّى لا يكتشفَ أحدٌ ما يحدث بداخل قطعة الأثاث في جانبها الآخر. كان أملُه ضعيفًا في أن تمرّ فعْلته دون أن ينتبهَ لها أحدٌ، وبالتالي توقّع مضطربًا أن يأتيه، من لحظة لأخرى، تهديدٌ بأن يخرج من الخزانة. غير أن الوقت مرّ، أوّلًا الثواني، تَلَتْها الدقائق، دون أن تقعَ مخاوفه. ومع الوقت، استعاد تنفّسُهُ إيقاعَهُ الطبيعيَّ، بينما بدأت عيناه، اللتان اعتادتا على الظّلمة بالفعل، وبفضل الضوء المُتسلّل من فواصل الأبواب، في تمييز أبعاد الكهف الخشبي، وكانت أبعادًا مُعتَبَرة. بالفعل، وكما لاحظ قبل أن يختبئ بداخله، كانت خزانة قديمة بثلاثة أبواب، دون أيّ تقسيمات داخلية، بمرآة كبيرة في الباب الأوسط، ولأنه بلا أدراج كذلك، كانت المساحة شفّافة بالكامل، إن كان يمكن استخدام هذه الكلمة مع تلك الظّلمة.

- أوّلًا - قال دميان لسيرخيو أوكان - كان يجب أن أجلس، وأحسب. هذا ما كنتُ أفعله في المؤسّسة، كلّما أخبروني بمشكلة طارئة: ألتزمُ هدوئي. لو تصرّفتَ سريعًا، تُخطئ. لا يأتي تسرّب المياه عادّة من حيث يظهر الرّشح. تبحث المياه دائمًا، مثل الضجيج، عن المسار الأسهل، وليس الأكثر منطقية. أن يظهر التسريب هنا، لا يعني أنكَ ينبغي أن تدقّ هنا، فقد تكون البؤرة في الجانب الآخر للبناية.

- وماذا كان أوّل ما حَسَبْتَهُ؟- سأل أوكان.

- أنه يجب أن أجعلَ الموبايلَ صامتًا. فرغم أني نادرًا ما تأتيني مكالمات، إلا أن الرنّة في تلك الظروف كارثةٌ.

- وبعدها؟

- بعدها، مع أن أعصابي قد هلكت، كان يجب أن أستمرّ في الخزانة طول الوقت الضروري، حتّى أتيقّنَ أنهم توقّفوا عن البحث عنّي. مثل حنكليس في ثغرة. كانت الساعة السادسة مساء. فكّرتُ أنه في أسوأ الأحوال سيُغلَق السوقُ في التاسعة.

ودون أن يكفّ عن توجيه كلامه لأوكان، أخرج دميان الموبايلَ من جيب المعطف، وضبطَهُ على الصامت، ثمّ أضاء الشاشة، وكان ضوؤها أضعفَ من اللازم ليكشفَه أحدٌ عبر الفتحات، واستكشفَ محيطَه. حَسَبَ أن الخزانة، لجودة قطعها الخشبية وتقفيلها (وهو من تشكيلة معروفة باسم Cola de Milano) قد تبلغ مائة عام أو يزيد. كانت صلبة جدًا، من البلّوط، وكانت تمنح في أجوائه مزيجًا من روائح، حاول أن يُحلِّلَها.

- من ناحية - قال لأوكان - أحسستُ بمواد كيماوية فائحة، استخدموها لمعالجة الكمكمة، بلا شكّ. وحين قرّبتُ شاشة الموبايل لإحدى الضلف، تحقّقتُ من أن بسطح الخشب شقوقات صغيرة، أحْدَثَها السوس، رغم أنها ليست عميقة. حين يكون البلّوط مُعالَجًا جيّدًا، لا يمكن اختراقه كالصلب. لابد أنهم أزالوا الأدراج والفواصل بين الضلف لسوء جودة مادّتها الأصلية، وهو ما انتبهَ له السوس.

- والسبب؟ - سأل الشومان.

- طيّب، في تلك الفترة، لم يكن غريبًا أن يُستخدَم البلّوط في جسم الأثاث الرئيس والصنوبر البلدي للعناصر المكمّلة. هذه التشكيلة من الصنوبر لها رائحة الزبدة.

- وما الروائح الأخرى التي كشفْتَها؟

- رائحة الرطوبة والملح الصخري. محتمل أن يكون الشاطئُ مصدرَ الأثاث، من هناك أيضًا تأتي بقايا الكمكمة.

- وما الروائح الأخرى؟

- رائحة ملابس قديمة.

- ملابس قديمة؟ ألا يكون ذلك محض إيحاء؟

- صدِّقْني، يا أوكان، لديّ حاسة شمّ استثنائية. لقد مرّت بهذه الخزانة أجيالٌ من البدل والبلوزات والملابس الداخلية، ليست دائمًا نظيفة. أتعرف موضوع الإسطبلات؟

- لا.

- استمرّت رائحة الروث في الإسطبلات حتّى بعد عقود من إخلائها. يعرف ذلك جيّدًا جدًا هؤلاء الذين بنوا بيوتًا في الأماكن القديمة.

بدون أن يُوقفَ هذا الحوار مع المذيع (كانت المقابلة trending topic عالمية، بحسب ما أكّد أوكان متوجّهًا للكاميرا) كان دميان ينظر في الساعة، ويحسب حساباته. كان محبوسًا هناك مدّة ساعة، وكان واضحًا أن أحدًا لم يرَهُ يدخل، لكنْ، كيف يعرف إن كانوا سيرونه حين يخرج أم لا؟!

انتظر عشر دقائق في صمت (فاصل إعلاني، قال أوكان)، وقرّر أن يفتح ثغرة، بألف حيطة، في الأبواب الجانبية. أوّل ما رآه كانت قبّعة حارس. أغلق، وعاد للقعود.

- هل شعرتَ بالخوف، يا سيّد لوبو؟- سأله أوكان بعد الفاصل الإعلاني.

- جدًا - أجاب دميان -. كان موقفًا مُربِكًا. كنتُ أفضِّلُ أن أموتَ على أن أشعرَ بالعار، لو كشفوني.

- والدبّوس؟

- كان في جيب المعطف الأيمن، هنا. ومن آنٍ لآخر، كنتُ أُخرجه، وألعب به بين أصابعي، بينما كنتُ أستمع لمحادثات الناس التي تمرّ على الجانب الآخر، وكنتُ متيقّظًا لاحتمال أن يفكّر أحد فضولاً في فَتْح أيّ باب.

- ماذا كان يمكن أن يحدثَ حينها؟

- كنتُ سأنتقل سريعًا خلف باب الضلفة الأخرى. وجرّبتُ بعض الحركات، على سبيل الاحتياط.

- وهل حَدَثَ شيء؟

- الحقيقة، نعم. لابد أني قد قضيتُ ساعتَيْن محبوسًا عندما فُتِحَ بابٌ من طرف الخزانة، كنتُ أختبئ وراءه. دَخَلَ الضوء عموديًا، مثل ماء يتسلّل من فتحة سَدّ مكسورة، غير أنه توقّف عند منتصف الخزانة، كأن هناك سدًا منيعًا غير مَرئي. في الحال، شاهدتُ رأسَ طفل، لا أعرف إن كان في الثامنة أو العاشرة، أو ربّما في الثانية عشرة، فلم أنجبْ، وعادةً ما أخمِّنُ خطأً أعمار الأطفال. ولأنه كان يتطلّع من الضوء، ميّزتُ ملامحه فورًا.

ولابد أنه، في المقابل، ميَّز حجمي، مع أني كنتُ مُكوّرًا كالبيضة في الطرف الآخر. لَفَتَ الحجمُ نظرَه بلا شكّ، ومَنَحَ لعينَيْه عشر ثانية ضرورية، ليعتاد الظلامَ. حينئذ، عندما لاحظتُ في وجهه انطباعًا متحفّزًا، ليعرف وجهي وملامحي، حرّكتُ سبّابتي إلى فمي في إشارة للصمت. تقهقهر الطفل بوجهه، وسمعتُ أمّه في الحال، تقول له أن يكفّ عن لمس كلّ شيء.

- و؟

- لا شيء، لحسن حظّي، لم يقل الطفلُ شيئًا، لكنه ترك الباب مفتوحًا، وقضيتُ دقيقة أو اثنتَيْن في رعب حتّى خطر ببال أحد أن يُغلقَهُ من جديد.

- هل فكّرتَ ذات مرّة في هذا الطفل؟- سأله أوكان.

- مرّات كثيرة - قال دميان -. سألتُ نفسي كيف يمكن أن يُؤثّر هذا الحَدَث على حياته.

- وماذا تعتقد؟

- لا أعرف، ونحن أطفال تحدُثُ لنا أشياء، لا يمكن تفسيرها، ولا نعترف بها أبدًا لأحد. وعندما نكبر، ننساها.

- هل تتذكّر إحدى هذه الأشياء؟

- نعم، ذات مرّة، ولابد أني كنتُ في السادسة أو السابعة، فتحتُ باب فرن الغاز ببيتنا، واكتشفتُ رأس جملٍ، بعينَيْن مفتوحَتَيْن، تنظران لي.

ضحك أوكان والجمهور.

- ولماذا فتحتَ باب الفرن؟

- كان قد تلفَ منذ فترة، ولم يعدْ مُستخدَمًا، هكذا رحتُ لأُخبِّئ فيه قِطَعَ الطوفي وحلوى الماثابان التي سرقتُها من نملية أمّي، لأتمتّع بذلك بمخزوني الخاص بعد انتهاء أعياد الكريسماس.

- كنتَ هاويًا، إذنْ، للسرقات الصغيرة منذ صغركَ - استنتج أوكان.

- لا، أقصد ... - تردّد دميان -. لم أكن أفكّر في ذلك على أنه سرقة، الأدقّ أنها كانت شيئًا طفوليًا، أليس كذلك؟

- وعُدتَ لفَتْح الفرنِ، لتستعيدَ الحلوى؟

- إطلاقًا. لقد دَوَّدَت الحلوى، وتسبَّبتْ في مشكلة عائلية، امتدّت لأسابيع أو شهور، إذ لم يستطعْ أحد أن يفهم كيف وَصَلَت إلى هناك، ولا كيف تُركَتْ هناك.

-٣-

كانت قد اقتربت ساعةُ إغلاق المركز التجاري حين لاحظ دميان، الذي قرّر انتظار تلك اللحظة، ليحاولَ الهروب، أن الخزانة تتحرّك بقوّة، كأنهم يرفعونها. وكان كذلك بالفعل. من الخارج، ومع الانتفاضات الأولى، بَلَغَهُ في مخبئه صخبُ مجموعة من العمّال، ترفع الخزانة، وتتبادل عبارات من نقط مختلفة.

- انتظرْ، سأضع اللاصق الأمريكي على الأبواب، لأنها بلا مفاتيح، وستصطدم بوجوهنا - قال أحدهم.

- لكنْ، لماذا لا نُفكّكها، ثمّ ننقلها، كما ينبغي؟- سأل آخر.

- لأن عمرها أكثر من مائة عام - أجاب ثالث - وإن فككناها سنضرّ بالمفاصل. ما من حلّ آخر إلا نقلها على حالته.

- المشكلة أنها ثقيلة كميّت.

- لأنها من خشب صلب، خشب حقيقيّ، خشب زمان.

أنصتَ دميان لخشخشة اللاصق الأمريكي عند فتح البكرة، وفَرَدَ جسمَهُ على الأرض، ليُوزّع ثقلَه بتوازٍ، ليتجنّب ارتياب أحد في وجود شيء أو أحد بداخل الخزانة. ولحسن الطالع، كان نحيفًا جدًا، ومتوسّط الطول،

بحيث حَسَبَ أن كيلواته ستذوب في كيلوات الأثاث. ومن هذا الوَضْع، شعر كيف يرفعون الخزانة، كيف ينقلونها، ثمّ كيف يُفرغونها فوق ما ظنّ أنه صندوق الشاحنة. كلّ شيء كان يحدث بين شكاوٍ وتحذيراتٍ وأوامرَ، يتبادلها العمّال بينهم وبين بعض بطريقةٍ مضطربةٍ.

وبعد برهة، انتهوا فيها من عملية رَبْط الخزانة، انطلقت الشاحنة. ربّما كانت تلك هي اللحظة المناسبة للخروج من الخزانة، وبعدها، حين تتوقّف الشاحنة في أيّ إشارة مرور، أو تُبطئ من سرعتها، عليه القفز والهروب. لكنه انتبه في الحال أن اثنَيْن من العمّال، على الأقلّ، كانا راكبَيْن في الصندوق نفسه، إمّا لأن الكابينة لا تسعهم جميعًا، وإمّا ليطمئنّوا أن الأثاث، رغم رَبْطه، لن يتحرّك.

- كانا يتحدّثان عن مهدّئات- قال دميان لأوكان.

- عن مهدّئات؟ أكيد؟

ضحك الجمهور الحاضر. كان ثمّة بداية تصفيق، قَمَعَهُ أوكان نفسه بإشارة من يده حتّى لا يفقد الحوارُ إيقاعَه. أكّد الضيف حينئذ أنه كان مضطرًّا للَصق أذنه بالتناوب من طرف بالخزانة لطرف آخر سريعًا، كي يسمع جزءَي الحوار، إذ كان كلّ عامل يجلس في طرف. أضحكت الصورةُ الجمهورَ مجدّدًا.

ولأن مغامرة دميان الواقعية وحضوره في البرنامج المُتخيَّل كانا يحدثان بشكل تلقائي، كان عليه أن يتحرّك بسرعة، تصيب بالدوار من جانب لجانب، وهي صعوبةٌ، تضاف إلى اهتزازات العربة، وضجيج الزحام المروري، إذ رغم أن صندوق الشاحنة كان يبدو مغلقًا إلا إن جزءًا من الصخب الخارجي كان يعبر من بين ثغراته.

- لابد أن غطاء الشاحنة كان مصنوعًا من القماش - وضّح لأوكان - لأن الرياح كانت تضجّ، فأسمع ضجيجَها، كلّما تحرّك القماش.

- لكنْ، عن ماذا كانا يتكلّمان في المهدّئات؟

- أحدهما أكّد أنه منذ بدأ في تناول المهدّئات صار العالم يستمرّ في داخله، رغم أنه لم يعدْ في العالم. أجابه الآخر بأنه لو استطاع الخروج من العالم، لن يعود إليه، وبالتأكيد لن يعود إلى العمل في نقل الموبيليا.

مرّ صمتٌ، تركه أوكان، أستاذ الإيقاع، يمتدّ لثوانٍ، لينفخ في روح التشويق. وفي النهاية، سأل:

- هل حَدَثَ شيء آخر؟

- أحدهما حكى نكتة عن الأحبال الصوتية - أضاف دميان لوبو متململاً -.

كان أوكان قد أجرى عملية منذ فترة قريبة لاستئصال عدّة أورام من تلك الأحبال، لهذا أبدى اهتمامًا بأن يحكي دميان النكتة.

- المسألة أنها نكتة قبيحة. - قاوم -.

المعلومة، بدلًا من إقصاء الرغبة لدى مُقدِّم البرنامج والجمهور، أثارت فضولهم.

- أنا نادم الآن أني أخبرتُكم - قال دميان -. الحقيقة أنها نكتةٌ، لا تُلائم التلفزيون.

- هيا، لا تدعْنا نتوسّل إليكَ - ألحّ أوكان مدعومًا بتصفيق الجمهور -.

- طيّب، رجلٌ يقول للطبيب إن لديه مشكلة في أحباله الشرجية، فيردّ

الطبيب: تريد أن تقول في أحبالِكَ الصوتية. لا، لا، يجيبُه الرجل، أنا أذهب إلى الحمّام كثيرًا، لكنْ، كلّما تكلّمتُ تبرّزتُ.

أطلق سيرخيو أوكان قهقهةً، يصحبها كورال من تصفيقات الجمهور وضحكاته. في تلك اللحظة، دَخَلَتْ فجأةً فقرةٌ إعلانيةٌ، استغلّها دميان، ليُركّز في العالم الواقعي، إذ لم تكن الأشياء قد تحسّنت. كانت الشاحنة في طريقها منذ نصف ساعة، وبعد الخروج من محيط المركز التجاري، سارت لفترة، فيما كان يبدو طريقًا سريعة، من المحتمل أنها إحدى الطُّرُق الدائرية بالمدينة. ثمّ دَخَلَتْ في منطقة شديدة الازدحام، وعادت بعد قليل إلى ما بدا طريقًا عادية. خاف دميان من أن تمتدّ الرحلة إلى ما لا نهاية، إذ واتتْه الرغبة منذ برهة في التدخين والتّبوّل.

حَسَبَ حساباته: كان قد دَخَلَ المركز التجاري في حوالي السادسة مساء، والساعة الآن، في ساعته الكاسيو ذات الكشّاف، التاسعة إلا الربع. لقد قضى ثلاث ساعات تقريبًا مقيّدًا في وَضْع عَبَثي، وتخيّل من خلاله بالتناوب حلولًا قاتمة وسعيدة.

- ألم يخطرْ ببالكَ فكرة التّخلّص من الدبّوس، وهو جسم الجريمة؟ - سأله أوكان عند العودة من الفاصل الإعلاني -.

- فكّرتُ مرّات كثيرة، - أجابه دميان- لكنه كان هديةً لكَ. بالإضافة لذلك، اكتسب الشيء مزايا سِحْرِيّة. كنتُ أفكّر أنه ما دام في حوزتي، لا يمكن أن يحدث لي أيّ سوء.

- لكن السوء كان يحدث لكَ. - احتجّ أوكان -.

- أقصد لن يحدث لي شيء أسوأ.

في تلك اللحظة، توقّفت الشاحنة. ومن خلال الحركة والضجيج بالخارج حَسَبَ أنهم قد وَصَلُوا لقبلتهم، بالتالي وقّف اللقاء مع المذيع، ليصبّ تركيزه كلّه في احتمالات الهرب الممكنة جميعها. أنصتَ لصخب أبواب العربة عند فَتْحها وغَلْقها وخطوات الرجال على أرض الصندوق المعدنيّ، وأصواتهم من جديد، وهم يحاولون التّوصّل لاتّفاق حول المكان الذي يجب أن يُمسِكَ به كلٌّ منهم لإتمام تفريغ الخزانة.

- اضطررتُ للرقود مرّة أخرى على الأرض - قال لأوكان عند العودة للبلاتوه - حتّى أُوزِّعَ ثقلي بالتساوي.

- وهل كان التفريغ قاسيًا جدًا؟ - سأل أوكان -.

- لا، لحسن الحظ، إذ ظَهَرَ صوت جديد، صوت أنثوي هذه المرّة، وأمر العمّال أن ينتبهوا حتّى لا يجرحوا الخزانة. استنبطتُ أنها المالكة الجديدة، وأننا صرنا أمام بيتها.

- هل ستقول لي إنكَ انتهيتَ داخل منزل خاص؟

- إلى الآن لا. أجبرتْهم أبعادُ الخزانة على خَلْع إطار باب مدخل البيت، وكان شاليهًا من شاليهات الضواحي، بحسب ما استطعتُ أن أرى من خلال ثغرة رغم أننا كنّا ليلًا. كان ضروريًا أيضًا فكّ أرجل الخزانة، وحلية تزينية بالجزء العُلويّ.

- ولم تتحْ لكَ أيّ فرصة للهرب خلال تلك الفترة؟

- ولا فرصة، دائما كنتُ محاطًا بأناس، وكانت الأبواب لا تزال ملصوقة باللاصق الأمريكي. خفتُ أن أسبِّبَ أيّ ضجيج عند دَفْع الخشب. وبينما

كانوا يعملون، سأل أحد العمّال السّيّدة لماذا اشترتْ هذه الأنتيكة لبيت حديث، بيت، بالإضافة لذلك، تفيض فيه الخزائن داخل الحيطان. قالت له المرأة إن هذه الخزانة كانت من أثاثات بيت أجدادها، حيث قضتْ أيّام طفولتها. لقد تعرّفتْ عليها بفضل شيء مميّز في الجانب الأيمن، أطلَعَهَا العامل عليه، وإنه، كما تحقّقت في الحال، كان خطوطًا، تشير لمدى نمُوّ الأطفال.

- انظر- قالت المرأة للرجل - مكتوبٌ هنا "لوثيا"، وهي أنا، وهذه الخطوط تشير لطولي من سنّ الخامسة إلى عشر سنوات، وهي الفترة التي عشتُها مع جدّي.

- والخطوط الأخرى؟ هل هذا خورخي؟

- نعم، خورخي، إنها خطوط أخي. كنّا في عمر واحد، لأننا توأم، لكنه مات بعد أن رحنا لجدَّيْنا بعامَيْن. مات بالتيتانوس. لذلك فالخطوط لم تكتملْ سريعًا.

- يا للحسرة!

- عندما اكتشفتُ الخزانة في السوق، لم أُصدِّقْ، فكّرتُ أني تحت الهجوم. مَنْ يدري كم دورة، دارتها هذه البائسة حتّى وَصَلَتْ إلى هنا.

- الدورات نفسها التي تدورها الحياة - أجاب العامل -.

-٤-

لم يخلُ الأمر من صعوبات ولا سباب، هكذا دَخَلَت الخزانة البيتَ في النهاية، وعانى العمّال مرّة أخرى، وبشكل لا يُوصَف، حتّى مرّروها للغرفة التي أشارتْ إليها المرأة. استقرّت الخزانة في موقعها، ثمّ أعاد بعضهم تركيب باب الغرفة، بحسب ما استنتج دميان، إذ تحتّم عليهم خَلْعه، كما تحتّم فكّ أرجل الخزانة وجزئها العُلويّ، فيما عمل العمّال الآخرون على تصليح الأضرار التي لحقتْ بباب المدخل. ثمّ ركّبوا الخزانة في حائط، أشارتْ إليه المرأة، وابتعدت الأصوات.

- في تلك اللحظة - قال دميان لأوكان - دفعتُ أحد الأبواب بألف حيطة، فانحلّ اللاصق الأمريكي بسهولة، ولم تكن مساحتُهُ أكثرَ من نصف شبر. ولمّا تحقّقتُ أنه ما من أحد هنا، خَرَجْتُ متعثرًا ودائخًا بعض الشيء، كأنكَ هبطتَ من الملاهي في التّوّ.

- وأين كانوا؟ - سأل الشومان -.

- عند باب المدخل مع السّيّدة، وقدّمتْ لهم البيرة، وربّما إكراميات على مجهودهم.

- طيّب، أظنّ أنكَ بعد أن استعدتَ نفسكَ، نظرتَ حولكَ. قل لي ماذا رأيتَ؟

- وَجَدْتُ نفسي في غرفة النوم الرئيسة بالبيت، غرفة الزوجية. كانت كبيرة، وبها حمّام خاصّ، توجّهتُ إليه بشكل غريزي، لأُفرغَ مثانتي. لم أكنْ أستطيع أن أتحمّل. وبدلاً من التّبوّل في الكنيف، ما سيضطرّني لشَدّ السيفون، وإثارة ضوضاء، قد تُلفتُ الانتباهَ، اخترتُ التّبوّل في الحوض، وفتحتُ الحنفية قليلاً لمَحْوِ الآثار. هكذا كنتُ قد اتّخذتُ القرارات، سريعًا ومهرولاً. لم يعملْ رأسي أبدًا بهذه السرعة ولا حتّى في مواقف العمل الأكثر تعقيدًا، وكانت كثيرة على مدار خمسة وعشرين عامًا.

أطلق الجمهورُ الضحكَ والتصفيق مع تعبير وجه أوكان المبتهج، وإيماءة دميان الحائرة.

- أظنّ أن السرعة تصير حيوية في تلك الظروف - أشار أوكان عندما هدأ الجمهور -.

- تخيَّلْ. المثير أنه في المواقف المتطرّفة لا يتوقّف الواحد منّا عن التفكير.

- وفيما كنتَ تفكّر؟

- في الذرائع الممكنة، إن فاجأني أحد. كنتُ سأقول إنني في أثناء زيارتي للسوق، شعرتُ بالتعب، ولم أعرف أين أستريح، فلمّا أوشكتُ على الإغماء، وَجَدْتُ هذا الأثاث أمامي، فَدَخَلْتُ، ورحتُ في النوم. في هذا المكان، رأيتُ أنه لا يمكن لأحد أن يربطَ وجودي في هذا البيت باختفاء دبّوس ربطة العنق. ربّما لم يلحظوا حتّى هذه السرقة. كما أنه لم يكنْ شيئًا ذا قيمة، أليس كذلك؟ وكان أقصى ما يمكنهم فعْله أن يُبلّغوا الشرطة، وكنتُ سأقول لهم الذريعة نفسها. هذا ما كنتُ أفعله،

بينما كنتُ أتبوّل: أتدرّب، كلمةً كلمةً، على موقفي أمام المرأة، ولو كان ضروريًا، أمام الشرطة.

- لكنْ، لم يكنْ ضروريًا.

- لا، إذ عندما انتهيتُ من التّبوّل كانت المرأة لا تزال مشتبكة مع العمّال في منطقة الهول. هذا يعني أنه لم يكن ممكنًا أن أتقدّم نحو مخرج البيت دون أن يكشفوني. وبالفعل، أطللتُ برأسي على الممرّ، ورأيتُ احتمالاتي كلّها، باتّجاه الشارع مغلقة. ولم يكنْ أمامي إلا التّوغّل أكثر في البيت، ما بدا لي غير ملائم.

وهذا ما حَدَثَ. عقب لحظات تردّد، وبسماعه لخطوات المرأة تتوجّه إلى غرفة النوم بعد أن ودّعت العمّال، عاد للاختباء، لكنْ، هذه المرّة كانت تحت السرير، إذ ظنّ أنها ستفتح الخزانة، لتُدلِّل نفسها داخل اتّساعها.

وبالفعل، أزالت المرأة اللاصق الأميركي، وفَتحَت الضلف الثلاث، لتُهوِّي الخزانة من الداخل، ثمّ دسّتْ رأسَها فيها باستلهام عميق، كأنها تتطلّع إلى الهاوية.

- ثمّ بعد ذلك - حكى لوبو لأوكان - بدأتْ في سحب البدل من فوق السرير، وعلّقتْها على شماعة الضلفة.

- وكنتَ هناك تراقبها، تحديدًا من تحت السرير نفسه؟.

- نعم، كنتُ أرى قَدَمَيْهَا الحافيَتَيْن بعد أن خلعتْ حذاءَها، وكذلك جزءًا من ساقَيْها، وكانت ترتدي جونلة مبهرجة، كلّما راحتْ وغدتْ تُصدر لحنًا. سأقول لكَ شيئًا، ربّما يُدهشِكَ.

- قلْ لي.

- بعد الساعات التي قضيتُها في الخزانة، وللمقارنة فحسب، بدا لي مكاني تحت السرير أكثر راحة.

ضحك الجمهور، وصفّق بحماس لدميان لوبو الرائق. أومأ أوكان للكاميرا بإيماءة، تحملُ من التواطؤ ما تحملُه من السخرية.

- أكثر راحة؟ - كرّر باستفهام -.

- نعم، بجدّ، كلّ ما كان ينقصني أن أُشعلَ سيجارة، لتكتملَ سعادتي. الأرضية كانت من موكيت سميك جدًا، بذلك لم تبعث أيّ برد إطلاقًا. أما ظهر السرير، فكان من ألواح خشبية، ولم يكن قريبًا من جسدي، إلى حدّ أن يخنقني، ولا بعيدًا، فيتسبّب في وقوعي في مَرمى النَّظَر. بالإضافة لذلك، جزء من ملاءة السرير كان يداريني. ولا أحد ينظر لمخبأ من هذا النوع، إلا إذا كان مُوسوسًا. أو لتمرير المكنسة الكهربائية، طبعًا.

- وهل أنتَ من هذا النوع المُوَسْوَس الذي ينظر تحت السرير قبل أن يضطجع؟ - سأل أوكان -.

- يعني، نعم - أكّد دميان راسمًا ابتسامة -. لكني أظنّ أني استثناء. الناس تعتاد النوم مع هذا الفراغ الميتافيزيقي تحت جسدها.

التفت سيرخيو أوكان للجمهور، الذي كان يحتوي صخبه من آن لآخر، ليستمر الحوار دون انقطاع، وطلب منهم أن يرفع يَدَهُ كلُّ مَنْ ينظر منهم تحت السرير قبل الاضطجاع. أقلّ من الثلث رفع يَدَهُ. بعضهم بقي في المنتصف، كأنهم يخجلون من الاعتراف، أو كأنهم متردّدون بين قول الحقيقة، أو فقدان فرصة تسليط الكاميرا عليهم.

- إذنْ - واصل أوكان - وَجَدْتَ نفسَكَ سعيدًا في هذه الفتحة ... كيف تسمّيها؟ فراغ ميتافيزيقي؟

- إنها طريقة للإشارة لتعقيدها. كان أبي يستخدمها كثيرًا. بحسبه، كان الرعب في أفلام هيتشكوك من هذا النوع.

- وكنتَ تراقب هذه الفتحة في بيتك كلّ ليلة؟ ...

- الأمر مثير للفضول، أليس كذلك؟ كَمَنْ يقع في هاوية، كان يتطلّع إليها.

في هذه اللحظة، دَخَلَ شخص البيت، صارخًا بـ "أهلاً"، وَصَلَتْ لغرفة النوم. هجر دميان لوبو البلاتوه، وركّز حواسّه كلّها في حالة استنفار. صرخت المرأة بدورها.

- تعال، يا فيدي، اجرِ، لكَ عندي مفاجأة.

في الحال تقريبًا، دَخَلَ رجلٌ الغرفة.

- انظر- قالت المرأة للرجل - لقد وَصَلَت خزانة أجدادي أخيرًا.

دَخَلَ الرجل الغرفة، وقبَّلَ مَنْ كانت بلا شكّ زوجته، وتظاهر بحماس مصبوغ فيما بعد ببعض العقبات التي راح يُعدِّدها، فيما كان الحوار يتطوّر. أولى العقبات كانت إشارته إلى أنهم بوَضْعهم الخزانة هكذا قد غطّوا وأنهوا استخدام خزانة غرفة النوم المحفورة في الحائط. تحجّجت المرأة بأنه ما من مكان آخر، وأن ذلك قد تناقشا فيه من قبل.

- المشكلة أننا سنخلق فراغًا عَبَثيًا هنا في الخلف – اعترض - إنه نوعٌ من المُعتَقَل.

- لا شيء يفيض لدينا في هذا البيت مثل الفراغات - قالت هي.

اشتكى الرجل كذلك من غياب الأدراج في الخزانة الخشبية.

- أين سنضع، إذنْ، ملابسنا الداخلية؟ - سأل -.

قالت إنهما أيضًا قد تناقشا في ذلك، وإنهما قد وَضَعَا كلّ شيء في خزانة غرفة الضيوف المنحوتة في الحائط. انتبه دميان أن الحوار كان يشتدّ بطريقة رهيفة، رغم جهود المرأة التي تُدعى لوثيا. وفي لحظة، اشتكتْ من أنه يقضي على فرحتها.

- أيكون الأمر أنكَ لا تُدرك معناه؟- أضافت -، أنا وأخي كنّا نختبئ في هذه الخزانة ونحن صغيران، كانت ملجأنا. إنها ... إنها ذكراي الوحيدة التي تبقّت منه.

- ذكرى نزقة - قال الرجل الذي يُدعى فيدي.

في أثناء ذلك، ظَهَرَ في غرفة النوم شخص ثالث، صوت مراهق، حَسَبَ دميان أنها ابنة الزوجَيْن، وأنها إمّا جاءت من الشارع، أو أنها استمرّت في غرفتها، بينما كانا يُصفّيان النقاش السابق. أبدت الفتاة تعبيرَ دهشة عند رؤيتها للأثاث.

- إنها خزانة سينمائية!- قالت.

- نعم، من فيلم رعب - أضاف أبوها.

- الجميع هنا من حقّه النزوات إلا أنا!- صاحت المرأة غاضبة.

- والزوج- شَرَحَ دميان لأوكان - لابد أنه أدرك أنه وَصَلَ للحدّ الأقصى، وبدأ في التراجع في تهكّماته.

- والابنة؟- سأل أوكان.

- تعبيرات الابنة لم تكن مُتهكّمة. بدا لي أنها تتّخذ موقف أمّها بكلّ رقّة، رغم عدم رغبتها في التصادم مع أبيها مباشرة.

- ماذا حَدَثَ بعد ذلك؟

- اختفى الثلاثة، كانت ساعة العشاء قد حانت.

- وماذا فعلتَ حينئذ؟- سأل أوكان.

- بقيتُ، وحيدًا تمامًا، تحت السرير.

في تلك الليلة، وداخل السرير، قام الزوج بمناوَرَتَيْن للاقتراب من زوجته، لكنها، مستاءَة من تهكّماته السابقة، كانت قاطعةً في رَفْضه. فأعطى لها ظهره، وفَتَحَ راديو الكومودينو، ليصدحَ من سمّاعته ينبوع مبالغ فيه لبرنامج رياضي، كماء يخرج من حنفية. حينها طَلَبَتْ منه بعصبية أن يُطفئه، فأطاعَهَا في الحال، مانعًا الضوضاء.

في أثناء ذلك، كان دميان يفكّر بتركيزٍ في المرأة النائمة، أو التي تحاولُ مصالحةَ النوم على بُعْد شبر منه. ورغم أنه لم يتعرّف على وجهها، إلا أنه ظل أسيرًا لصوتها الغائم قليلاً، كأنه ملفوف بشاش. غمّض عينَيْه، فتذكّر قَدَمَيْهَا الحافيَتَيْن، بأصابعهما التي بدتْ له طويلة قليلاً غير أنها ملفوفة بمهارة، لدرجة أنها ما كانت لتلفتَ الانتباه لو كانت في يد صغيرة. حاول أن يتخيّل كيف دخَلَتْ بين المُلاء، هل ببيجامة أم بقميص نوم؟ أو ربّما عارية. لم يتمتّع أبدًا بهذه الدرجة من الحميمية الكبيرة مع امرأة إلا المرأة الصينية (هذا ما كان ينتظره)، وهو ما أثاره جدًا. تردّد أن يتكلّم مع سيرخيو أوكان في هذا الأمر، وبينما هو شارد، مدّ يَدَهُ إلى بنطلونه، وفَتَحَهُ، ثمّ بدأ يتحسّس نفسه. لم يكن منتبهًا تقريبًا إلى أنه كان يمارِسُ العادة السّرّيّة حتّى وَصَلَ الذروة، إذ فعل ذلك كلّه بحركات شبحية، كان بها يُخفّف الضغط عن جثّة.

ثمّ استرخى حزينًا. تخيّل نفسه في برنامج أوكان يحكي هذا الموقف شبه الحقير أمام جمهور من الحضور وملايين المشاهدين في بيوتهم. لابد أن الناس ستنفجر ضحكًا، فهذه الأشياء تأتي ثمارها في التلفزيون، وستكون نجاحًا جماهيريًا مُدويًّا. لكنْ، والكرامة؟ تساءل. هل كان الأمر يستحقّ أن يضحّي بكرامته في مقابل الجمهور؟ أجاب نفسه بـ نعم. وبعد كلّ شيء، كان شو أوكان يحدّث في عالم، ينقصه جسور التواصل مع هذا العالم. وعلى أيّ حال، قرّر أن يدّخر القصّة لواحدة من هذه اللحظات التي يقرّر الجمهور فيها، دون أن يعرف السبب بوضوح، تغيير القناة. مع ذلك، وربّما للهشاشة التابعة للقذف، اعترف لأوكان عند عودته للبلاتوه المُتخيَّل أنه لم يضاجع أبدًا امرأة غريبة، أنه لم يضاجع أبدًا أيّ امرأة في الواقع، باستثناء أخته الصينية.

جاءت لحظة صمت احترامًا له بين الجمهور. صمت كذلك المذيعُ ذو العينَيْن الصفراوَيْن لعدّة ثوان. ثمّ سأل:

- أتفضِّل ألا نخوض في الأمر؟

- نعم - قال دميان -، أفضِّل ذلك.

- أفهم على أيّ حال أنكَ عشتَ حياةً منعزلةً؟

- جدًا. منذ تركتُ البيت من سنوات طويلة، لم أر أختي إلا في مناسبات معدودة، مع أنها لم تكفّ عن تشكيل خيالاتي الجنسية. من جانب آخر، كان عملي يُسهِّل لي الانعزال الذي أميل إليه بطَبْعي. كان مكتبي في قبو مبنى المؤسّسة. وهناك، بين الرفوف الحديدية المكدّسة بأرشيفات قديمة على وشك الانفجار بملفّات، لا يطّلع عليها أحد، كان هناك كوخ

متواضع، تحوَّل إلى ورشة، كنتُ أقتسمُها مع مَنْ كان رئيسي في فترة ما، وكان رجلًا عجوزًا، شديد المهارة يدويًا، لكنه كان مُنطويًا على نفسه كأنه في زنزانة. كانت البناية قديمة، شديدة القِدَم، وخلال ساعات، لم يكن يمرّ أيّ صوت إلا صخب الأنابيب والمصارف. وأنا كنتُ أتحدّث بذهني مع الضجيج. كنتُ أتخيّل أنه يقول لي أشياء، حماقات، لا شيء عميق، وكنتُ أردّ عليه بتفاهات أيضًا. ومن حين لآخر، كان الهاتف يرنّ، ونضطرّ للصعود لأحد مكاتب البناية، لنُصلح شيئًا: دِرْجًا لا يُغلَق جيّدًا، لمبة فلورسنت ترعش، بابًا انفصل عن البرواز، قفلًا مكسورًا ... كنّا نُسلِّكُ الحمّامات، نقوم بصيانة المصعد، نُنظّف الدفّايات، ننفض خراطيم التكييفات ... أحدِّثُكَ عن سنوات سابقة على انفجار فكرة الرَّمْي المبرمَج. أتعرف إلى ما أشير؟

- نعم - أجاب أوكان -، لقد رأيتُ الفيلم الوثائقي.

- لا مهاراتي اليدوية ولا قدراتي التِّقْنِيَّة لهما فائدة في عالم، اختار أن يرمي الأشياء التي تتلف بدلًا من تصليحها، لتحلّ محلّها أشياء جديدة. حين مات رئيسي، الذي لم يدم كثيرًا، بقيتُ وحدي في هذا القبو، أتحدّث مع الضجيج، أعطي طعامًا للفئران، وكانت بالمئات، وأبحر بالإنترنت، وأنتَ تعرف عمّا كنتُ أبحث. كان هناك دائمًا شيء لتصليحه، بالطبع، لكنْ، في الزمن الحديث، أصبحوا يستعينون بخدمات صيانة خارجية. حينئذ تعاقدوا مع مؤسّسة، يديرها ابن أخت المدير العام، وكنتُ في البداية أقوم معها بدور الوسيط. من هنا صرتُ أعطي تعليمات لمهندسين شبّان. بعدها، شيئًا فشيئًا، من ناحية، لأن الأمور صارت هكذا، ومن ناحية، لأني فقدتُ حماسي، باتت الأقسام المختلفة تستغني عنّي، فتضاءل عملي حتّى أصبحتُ بلا قيمة، فلا أؤدّي إلا أعمالًا قليلة الأهمّيّة، وبعيدة فيما بينها.

قضيتُ سنواتي الأخيرة في القبو، وحيدًا، دون أيّ رفقة إلا من الكمبيوتر الذي عرفتُه أكثر ممّا أعرف رأسي ذاته. وحين اعتقدتُ أنهم قد نسوني، وأني سأبقى هكذا إلى الأبد، جاءني جواب الطّرْد من العمل.

- لقد وَصَلْتَ لأعلى درجات الصراحة - أكّد أوكان -.

- إنه الإحباط - ردّ دميان -. الإحباط يقود إلى الصراحة.

- وقل لي، هل تأخّر الزوجان اللذان نمتَ تحت سريرهما حتّى استغرقا في النوم؟

- لا، لا أعرف، الوقت الطبيعي. هو كان يشخر قليلًا. هي كانت رقيقة الأنفاس، لكنْ، لو ركّزتَ أكثرَ، ستنتبهُ إلى أنها تتمتّع بالسَّكينة المميّزة للحُلم.

في أثناء ذلك، لاحظ دميان اهتزازًا طفيفًا في الجيب، حيث يحتفظ بالموبايل. لقد تلقّى رسالة في التّوّ، فَفَتَحَهَا بيدٍ، تحيط بالشاشة حتّى لا يتسرّب الضوء إلى محيطه. كانت رسالة من المصرف. كانوا يقولون إنه أصبح عضوًا في مسابقة، تقترع على الفوز بتابلت سامسونج، وليعرف إن كان فائزًا عليه الدخول على صفحة المصرف. عندما عاد إلى البلاتوه، حكى ما حَدَثَ له في التّوّ، فضحك الجمهور، وصفّق.

- في هذه اللحظة - أضاف دميان -، نعم بدا لي أني سمكة حنكليس مختبئة في إحدى ثغرات أعماق البحر.

- ألم تفكّر في الهروب الآن، وقد نامت العائلة؟ - سأل أوكان -.

- لا، رغم أني لم أفكّر أيضًا في البقاء. ولا حتّى كنتُ أعرف أني لا أزال

هناك. ببساطة تركتُ الوقت، يمرّ بينما كنتُ ألعب بأصابعي بدبّوس ربطة العنق.

- الدبّوس!- تذكّر أوكان -، هنا بدأت الحكاية، وإلى الآن لم تُرِني إيّاه.

مدّ دميان ذراعه، ليُسلّمه للمذيع، غير أن الدبّوس بقي في يده، ما برهن له من جديد على صعوبات التواصل بين الواقعَيْن اللذَيْن يتحرّك فيهما. تلقّى أوكان نسخة وَهْمية من الدبّوس، ورفعها أمام الكاميرا، ليشاهد الجمهور الحرفَيْن الأوّلَيْن المحفورَيْن: S.O. صفّق الجمهور. ثمّ التفت سيرخيو أوكان لدميان لوبو:

- وبعد ذلك؟- سأله.

- سقطتُ بحواسي كلّها، وتلقائيًا، في نوع من النوم القَلِق، أو اليقظة المستكينة، أيّهما تفضِّل، بحيث كنتُ متيقّظًا ونائمًا، مثلما ينامون في الخنادق حسب اعتقادي.

-٦-

في السادسة وخمس وأربعين دقيقة صباحًا، اشتغل راديو الكومودينو أوتوماتيكيًا. كان يذيع الأخبار المحلّيّة. انقلاب شاحنة محمّلة بخنازير حَيّة على طريق M40 بمحاذاة الخروج من طريق بالينثيا، ما أدّى لوفاة عشرات الحيوانات التي غطّت جثثها الأسفلت؛ أما الحيوانات الحيّة، فهرولت تائهة في الطريق والطُّرُق المجاورة. كانت الإذاعة تنصح السائقين بالسير في طُرُق بديلة. صرير ظهر السرير واهتزازه وشى بحركة جسدَي الزوجَيْن، جسدان يتمطّان على المرتبة قبل أن يستسلما للصَّحْو. فُتِح النور، إذ لم ينقض الليل تمامًا، واستعدّ دميان لمراقبة حركاتهما الملفتة عبر الفتحة التي يتطلّع من خلالها إلى حياة الآخرين.

كان ثمّة ذهاب وإياب غزير، أوّلًا حول السرير، ثمّ بين الغرفة والحمّام. بدت التّحرّكات خاضعة لنظام ثابت بقوّة. هكذا انهمر الدّشّ بنظام، تمّ شدّ السيفون، وعاد ليمتلئ مجدّدًا برتابة؛ أصدرت مكنة الحلاقة صخبًا حذرًا؛ وانطلق ضجيج الإسشوار بلهفة كهربائية ... وحيث يرقد، بلغت دميان تيّارات الهواء الضعيفة القادمة من أبواب عريضة لخزانة قديمة، كلّما فُتحت أو أُغلِقت.

- وبالإضافة لتنصّتي على الواقع - قال لأوكان في لحظة هروب إلى برنامجه -، كنتُ أتماهى معه، كنتُ منتبهًا لأيّ حركة مفاجئة، قد تكون خطرًا.

- وهل كان هناك أيّ خطر؟

- نعم. في لحظة ما سألت المرأةُ، لوثيا، زوجَها إن كان قد عاد إلى التدخين.

- لماذا؟ سألها.

- لا أعرف - قالتْ له - يبدو لي أني أشتمّ رائحة تبغ ضعيفة. يشغلني أن تدخّن ماريا في الخفاء.

- كانت الرائحة منبعثة منكَ - أشار أوكان.

- من ملابسي. كما تعرف، فالملابس تمتصّ الدخان. ولحسن حظّي، اتّجهت شكوكها صوب الفتاة، وعرفتُ بالصدفة أن اسمها ماريا. لوثيا، ماريا وفيدي، اسم التدليل من فيديريكو على ما أظنّ. لا شيء غريب، إنها عائلة عادية.

خَرَجَ الزوجان من الغرفة عدّة مرّات، وعادا إليها بعد أن عبرا، بحسب ما ظنّ دميان، بغرفة الضيوف لأخذ ملابس داخلية، لم يكن ممكنًا وَضْعُها في الخزانة الجديدة، لعدم وجود أدراج. وفي وسط هذه الرحلات القصيرة، كان الرجل أو المرأة أو كلاهما يطرق باب غرفة الابنة، ليأمراها صارخَيْن أن تستيقظ. كانا يقعدان أحيانًا على حافة السرير، كلّ منهما في جانبه الخاص، مستعرضًا كعبَيْه أمام نظرة دميان الذي استمر في وَضْعه مستمتعًا بقَدَمَي المرأة. وبناءً على تنسيق الحركات، حَدَسَ أن أعضاء العائلة الثلاثة يخرجون من البيت معًا، ثمّ يسير كلّ منهم في طريقه لقضاء احتياجاته.

انتقل زحام الأجساد بعدها إلى منطقة أخرى (المطبخ، بالطبع)، ومن

هناك، بدأتْ خشخشة الفناجين والشوك والسكاكين تختلط بالكلمات التي كانت تضيع، كلّما تقدّمت نحو الممرّ، لتبلغَ طبلة أذن دميان، ليس بكونها أصواتًا مركّبة، بل الأحرى أنها نشارات حوار متقطّع بمضمون عملي.

بعد برهة، عادت المرأة ببلوزة مفتوحة الصدر، وكانت قبلها قد ارتدتْ حذاءً أسود بكعب. وفي الحال، دَخَلَ الرجل أيضًا، بحذاء بنّيّ وبنطلون فاتح مخطّط. طلبتْ منه أن يُغلِقَ الشّبّاك، وكان أحدهما قد فَتَحَهُ لتهوية غرفة النوم.

- وحاولْ أن تتذكّر – أضافتْ - أننا بدون خادمة، لذلك لا تَرِمِ كلّ شيء في أيّ مكان، كالعادة.

ومن بين الأشياء التي لا يصحّ أن يرميها "في أيّ مكان" كانت الجوارب والألبسة التي يُلقيها على الأرض، بالضبط بجانب الحدّ الذي يفصل مخبأ دميان عن الفضاء الخارجي. ودميان، المنتبه لحركة الظّلّ، قَمَعَ أنفاسَهُ قبل أن تظهر في مجال رؤيته يد الرجل، الذي جمع القِطَعَ المتّسخة، واختفى معها.

بعدها، اجتمعت الخطوات التي تتكوّن من ثلاثة أزواج من الأقدام في نقطة ما بالممرّ، وفي الحال، سمع صوت باب (فكّر دميان أنه الباب الذي يربط المرأب بالبيت)، يُفتَح ويُغلق. أخيرًا أصبح بمفرده. مع ذلك، وكأن الاحتياطات كلّها بدت له قليلة، قرّر أن يستمرّ تحت السرير لمدّة نصف ساعة أخرى، فربّما ينسون شيئًا، ويعودون إليه.

ورغم أنه لم يسمع صفّارات إنذار، تُصدر تحذيرات منزلية، بمجرّد لمسها، لتشير للمُستخدِمِ إلى الفترة المتاحة أمامه للخروج من دائرة

الحَدَث، فضّل أن يتّكئ على احتمالية أن جهاز الإنذار موجود، وبالتالي أخرج رأسَهُ بحيطة، وراقب الأربع أو الخمس نقاط استراتيجية بغرفة النوم دون أن يكتشف أيّ كاميرا. ثمّ ترك مكانه تحت السرير بتأنٍّ، وجلس ببطء، متيقّظًا لاحتمالية وجود أيّ جهاز لكَشْفه. لم يكن هناك أيّ جهاز.

- ألم تشعرْ بجسدكَ متخدّرًا؟ - سأل أوكان.

- قليلًا، نعم. لكني لم أنتبهْ في الحال. فالجسد يختفي في مواقف الضغط الشديدة.

- طيّب، وماذا فعلتَ؟

- أوّل ما فعلتُهُ، رحتُ للحمّام، استجابةً لاحتياجاتي. ثمّ خَرَجْتُ من غرفة النوم إلى الممرّ، وتأكّدتُ من عدم وجود أيّ جهاز إنذار من أيّ نوع في بقية البيت. انتبهتُ في الحال إلى أنه شاليه من طابق واحد، من ثلاث غرف، وجيّد التقسيم. في عمق البيت، يقع المطبخ والصالون، يربط بينهما جدار، يضمّ البار. هناك يُولَد (أو يموت) ممرّ، في أحد جوانبه تقع غرفة الفتاة، وحمّام كامل؛ وفي جانب آخر غرفة الزوجية، بحمّامها الخاص، وغرفة الضيوف. الممرّ كان يموت، أو يُولَد، بحسب منطقة النَّظَر، في ريسيبشن المدخل الرئيس للبيت، حيث ثمّة خزانة كبيرة منحوتة في الحائط وحمّام. يضمّ البيت حديقة أمامية صغيرة، بجانب مَنزَل المرأب، وحديقة أكبر في الجزء الخلفي، يمكن الدخول إليها عبر بابَيْن، أحدهما في الصالون والآخر في المطبخ. يربط الحديقَتَيْن ممرّان من الحشائش على جوانب البيت. ورغم أني أطللتُ من النوافذ بحيطة، خشية أن يراني أحد الجيران، لم أستطعْ أن أتحقّقَ في أيّ منطقة بمدريد كنتُ.

- في الضواحي، بالتأكيد - أكّد أوكان.

- نعم. كان البيت محاطًا بشاليهات مشابهة. كانت منطقة حضرية بالضواحي لها مناطق كثيرة تُشبهها.

- وحانتْ لحظة الهروب.

- نظريًا، نعم. لكنْ، بدلًا من ذلك، توجّهتُ للمطبخ، لأني كنتُ جائعًا، تذكرُ أني لم أتعشّ في الليلة السابقة. سخّنتُ كوب لبن في الميكروويف، وسقّيتُ فيه الدَّنَش. وبينما كنتُ أفطر، فردتُ ساقَيّ، فالليلة السابقة كنتُ تحت السرير، والآن بمجرّد أن استرحتُ، بدأتُ في دَفْع الثمن.

- أتّفق معكَ، فَرَدْتَ ساقَيْكَ، وبعد ذلك؟

- قرّرتُ ألا أدخّن سيجارة الصباح الأولى. ولا الثانية. في الواقع، أخذتُ علبة السجائر التي كانت في المعطف، وفرّغتُها، رميتُ محتواها في المرحاض، وشددتُ السيفون عدّة مرّات، حتّى لم يتبقّ ولا فلتر واحد، ولا ورقة بفرة على وجه الماء. أما العلبة، فأحرقتُها في حوض المطبخ، وتركتُ الرماد يهرب عبر المصرف. وها أنتَ ترى، لقد توقّفتُ عن التدخين.

- دون إبر صينية، ولا لصقات نيكوتين - تهكّم أوكان، ليُضحِكَ الجمهورَ.

- الحال أن الحوض كان مليئًا بأطباق متّسخة من العشاء وبفناجين الفطار- واصل دميان - هكذا قلعتُ المعطف، وشمّرتُ القميصَ، وبدأتُ في غسل الأواني.

في البلاتوه، انفجر الجمهورُ في الضحك، فيما وجّه أوكان للكاميرا واحدة من نظرات التواطؤ مع مشاهد، مَنَحَ له نجاحًا كبيرًا على طول

مسيرته. كانت عيناه الصفراوان، من مستوى قريب، تبعث انبهارًا متوتّرًا، تشتد حدّته برَفْع حاجب وحاجب آخر بالتناوب.

- إذنْ، بدأتَ في غسل الأواني - أكّد بخُبث.

- نعم، كان هناك غسّالة أطباق، لكني أفضّل دائمًا الغسلَ بيدي. في ذلك أحد تدريبات الزّن. بينما تدعكُ، تتنقلُ الأفكار من هنا لهناك، دون أيّ تعمّد في الظاهر. غير أني بعد ذلك، أنتبه أن الأفكار تُغرَل، رغم أنكَ لا تميّز أيّ أفكار. حَدَثَ لي أحيانًا، وأنا أتأمّل قعر الفنجان بعد غَسْلِه، أني بقيتُ خالي الذهن، أبيض، فارغ تمامًا، مثل الفنجان الذي بين يدي. في تلك اللحظات، كيف أقولها لكَ؟ يهاجمني شعور خاطف بمعنى أن تكون جزءًا من كلّ.

- هل لديكَ اهتمامات دينية؟

- ليست دينية بالضبط، أو على الأقلّ، ليست بالمعنى السائد للمصطلح. بمناسبة الفنجان، أتذكّر فيلمًا وثائقيًا، عُرِض في التلفزيون، كان يحكي عن الطبق الياباني.

- طبق الأرز التقليدي؟

- هو ذلك. في بساطته، تختبئ تعقيدات مَهولة، وإن لم يبدُ ذلك، كأن كلّ طبق يحوي الكون.

- وتقول إنكَ شعرتَ بنوع من النشوة، وأنت تدعكُ الأواني؟

- لا، لكنْ، هاجمني شعور بالسلام مع ذاتي، لم أشعرْ به منذ طردوني من المؤسّسة. لقد تسبّب طَرْدي في خَلَل، دفعني لارتكاب سرقة دبّوس

ربطة العنق، وهو حَدَثٌ، صَدِّقْني، لا يمكن أن يفكّر فيه رجلٌ شَبَهي. لقد انتبهتُ إلى أني فعلتُ ذلك لكوني خارج وعيي، إذ كنتُ أخاف ممّا يفرضه الحَدَث من تغيير في حياتي، كما كنتُ أخاف من المستقبل. الخوف أحد أكثر المشاعر المدمّرة، إنه يحوّلنا بالفعل إلى هوام. وأنا كنتُ قد عرفتُ الخوف. الخوف كان مُسبّبًا للسرقة، ولكلّ ما حَدَثَ بعدها من سلسلة أحداث غريبة. لكنْ، كما ترى، كنتُ أغسل فنجانًا من فناجين إفطار هذه العائلة، وظننتُ، بسبب بقع الكاكاو في القعر، أنه فنجان الابنة، فيما شعرتُ حينها بسلام مع نَفْسي. والسلام، صَدِّقْ ذلك أو لا، كان مصدره الفنجان، قعره المجوّف. الفنجان كان في سلام، وكان يعديني بهذا السلام الذي لا يسعُ أيّ خوف.

الجمهور المُتخيَّل في البلاتوه يلتزمُ الصمتَ بأنفاس مكتومة، ممتصًا كلمات دميان لوبو. في أثناء ذلك، أخبروا سيرخيو أوكان من الكنترول، عبر السمّاعة، أن الجمهور يتضاعف. واصِلْ في هذه النقطة، أشار له مخرج البرنامج.

- أنتَ تصف تجربة صوفية- قال.

- تجربة صوفية؟- تساءل دميان بنبرة مَنْ ينفي أهمّيّة الموضوع -. لا، هذه مبالغة. دعنا نتّفق على أن الخوف، ببساطة، قد انصرف. وما من حُرّيّة أكبر من غيابه، غياب الخوف.

- وبماذا ترجمْتَهُ؟

- بعد أن أنهيتُ عمل المطبخ، تجوّلتُ بالبيت. كان في الصالون عدّة صور عائلية، بحيث تمكّنتُ من التّطلّع إلى وجوههم، والمرأة لم تكنْ، في

الحقيقة، صينية. ولا الابنة كذلك. لا صينية، ولا متبنّاة، ففي أحد الأدراج، عثرتُ على كتاب العائلة، ولم أكتشفْ شيئًا غريبًا. لكن الغريب، دون أن تكون إحداهما صينية، أن وجهَيْهما مُريحان، خاصّةً وجه الأمّ. كانت المرّة الأولى التي شعرتُ بتواصل من هذا النوع مع امرأة غريبة.

- أتقصد أنها أعجبتْكَ؟

- لا أعرف إن كانت كلمة "أعجبَتْني" هي المناسبة، ربّما نعم. بدا لي أنها تتمتّع بشيء يمكن أن يُحرّرني من النموذج الآسيوي. لقد قرأتُ في الإنترنت مقالاتٍ حول النموذج الجنسي. هناك أناس يأتون إلى الحياة بنموذج، ويرحلون بالنموذج نفسه. أنا أتحدّث عن نماذج ممرّضة جدًا، بالطبع.

- مثل حالتكَ مع أختكَ الصينية؟

- بالضبط.

- وماذا كانت استنتاجاتكَ الواضحة من تلك الصور؟

- طيّب، إنها عبارة عن أسرة شابّة، فلنقل إن الزوجَيْن في حدود الأربعين، والابنة، بحساباتي، في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة. أثاثات البيت كانت جديدة، من أيكيا، واستنبطتُ أنها ليست بهذا البيت منذ فترة طويلة، ربّما منذ عام أو أقلّ. إحدى الصور التُقِطَتْ بتِقْنِيَّة، تجعل عينَي المرأة تنظران إليّ، مهما اختلف مكاني. لابد أنك تعرف هذا المؤثّر.

- بالطبع - ردّ أوكان.

- إذنْ، لم تتوقّف عن النَّظَر إليّ، سواء كنتُ على يمين الصورة، أو كنتُ على يسارها، سواء انحنيتُ، أو وقفتُ على كرسيّ. كنتُ أختبئ وراء باب،

على سبيل المثال، وأطلّ عليها بتمهّل، لأحاول مفاجأتها، لكنْ، قبل أن أطلّ، كانت عيناها تنتظراني. لم يكن تعبيرها تعبير مراقبة، بل توسّل، كأنها تطلب مساعدتي.

- وكيف كان وجهها؟

- كان مثل صوتها.

ساد صمت، إذ قال دميان لوبو إجابةً قاطعةً، بينما كان سيرخيو أوكان ينتظر أن يُطوِّرَها. في النهاية، عاد أوكان، وتدخّل:

- وكيف كان صوتها؟

- أظنّ أنه كان ملثّمًا بعض الشيء، كأنه ملفوفٌ بالشاش.

- وهي؟ كيف كانت؟

- كانت كذلك أيضًا، كامرأة تخرج من ضباب، أو من مرض خطير، سيّدة في فترة نقاهة، بنظرة مذهولة، وبفم نصف مفتوح، كأن الهواء الذي يدخل من أنفها غير كافٍ لها. كانت عيناها، مثل فمها ومثل أنفها، صغيرتَيْن، صغيرتَيْن جدًا على ما أعتقد. عينان طفوليّتان أو غير كافيَتَيْن، رغم أن ذلك لا يجعل منهما بائسَتَيْن. لم أرَ أذنَيْها، إذ كانتا مختبئَتَيْن خلف شعرها المفرود الذي يصل لرقبتها.

- وهل بدتْ لكَ جميلة؟

- ليست جميلةً بالطريقة المعتادة.

- وهو؟

- له جاذبية لاعبي التنس. لا أقول إنه يلعب التنس، لا أعرف، لكنه بالجسد نفسه، وفي وجهه مرونة مَنْ يعتاد على التّنقّل من جانب الملعب لجانبه الآخر بحثًا عن الكرة. فلنقل إن جاذبيّته معتادة، ستاندرد، أنتَ تفهمُني بالتأكيد، جاذبية رجل، بفكّ عريض، وفم كبير، وعينَيْن بينهما مسافة واسعة جدًا في وجه مسح، بلا أيّ نتوء.

- أنتَ ممتازٌ في التعبير عن نفسكَ - أشار أوكان.

- شكرًا، يا سيرخيو. أما الطفلة، النحيفة جدًا، فكانت كبيرة بالنسبة لسنّها، وكانت تشبهُ أمّها.

- وفعلت حسنًا. وماذا فعلتَ أنت بعد النَّظَر للصور العائلية؟

- صلّحتُ باب خزانة المطبخ، إذ كانت، رغم أنها جديدة، مخلوعًا قليلًا، لأن مُفصّلته كانت متراخية.

- مفصّلات هذه الخزائن هي الشيطان.

- إن لم تكنْ تفهمها، فنعم، مثل كلّ شيء. هذه المفصّلات اسمها مقلاة، بالمناسبة. على اليوتيوب هناك فيديوهات كثيرة تشرح كيفية تركيبها. فقط يجب تثبيتها بصمولتَيْن. فعلتُ ذلك بسكّين مطبخ بسِنّ، لأني أعرف أنها صمولات صليبة.

كان الجمهور يضحك بتقطّعات أمام هذه الدقّة، وكان أوكان يبدو مستريحًا، كأنهم ينقلون له عبر السمّاعة أخبارًا سعيدة.

- طيّب - تدخّل الآن - حينئذ غسلتَ الفناجين، وصلّحتَ باب خزانة المطبخ ...

- رتّبتُ الأَسِرَّة أيضًا، سرير الطفلة وسرير الزوجية، إذ اقتصروا على شدّ المُلاء والبطّانيّات كما اتّفق، ليُداروا المرتبة فحسب. بقيتُ في غرفة الطفلة عدّة ثوانٍ، ولم أرَ شيئًا تقريبًا. شعرتُ بالحياء، لا أعرف، أو الخجل من أن أقلّب في حاجاتها.

- أفهم ذلك.

- الحال أني فعلتُ كلّ شيء، ولا يزال الوقت مبكرًا، هكذا فتحتُ تلفزيون الصالون. لم أشاهد التلفزيون أبدًا في هذه الساعة، وكانت الفكرة وحدها تُسبّب لي الإحباط، مثل فكرة الشرب صباحًا. ثمّ أطفأتُه في الحال، وخرجتُ إلى الممرّ، لأكتشفَ في السقف واحدًا من هذه الأبواب السّرّيّة المُعلّق بها حبل عند شدّه يُفتَح سلّم أوتوماتيكيًا. شَدَدْتُهُ، وصعدتُ. كان هناك دور عُلويّ، لا يمكن أن تمشي على يمينه ولا وسطه. وكان هناك صندرة صغيرة، يمكن أن نقول إنها ملأى بأشياء محفوظة. رأيتُ حقيبتَيْن توأمًا، وصندوقًا خشبيًا متراصّة بداخله لعبات وباروكات قديمة. كذلك سريرًا صغيرًا، ومائدة تُستخدَم لأكل الأطفال. رأيتُ عدّة صناديق كرتون مختومة بلاصق أمريكي، وتلفزيونًا قديمًا، وعلبتَيْن أو ثلاث، بها شرائط فيديو، من الـ vhs، صارت تاريخية، وجهازَي فيديو قديمَيْن لهذه الشرائط. كان هناك مكتبة صغيرة، تحوي قصصًا للأطفال، وملازمًا مفردة منها، أو من غيرها، وعدّة أرفف، تضمّ كُتُبًا مُبتذَلَة حول الأشباح، وموضوعات خارقة بشكل عام. ثمّ اكتشفتُ صندوقًا خشبيًا آخر، يحوي ثيابًا رجالية، لا تُستخدَم، لكنهم يحتفظون بها. وعثرتُ على طَقْم رياضي مريح جدًا، وشتوي جدًا، وعلى مقاسي بالضبط. مع ذلك، كانت ملابس المرأة القديمة مُعلّقة على واحدة من تلك الشمّاعات المتّكئة على عمودَيْن بعجل، وتُغطّيها

ملاءة، لتَحميها من الغبار. أخذتُ الطَّقْمَ الرياضي، وخَرَجْتُ من الدور العُلويّ، وأغلقتُ الباب السّرّيّ. ثمّ توجّهتُ للغرفة الرئيسة تاركًا الطَّقْمَ الرياضي على السرير، وبحثتُ في الخزانة عن التجريحات التي تحدّثتْ عنها السّيّدة. كانت هناك، في الضلع الأيمن من الأثاث. كانوا قد حفروا، أكثر منهم كتبوا، اسم الطفلة: لوثيا، وبجانبه الخطوط التي تشير لنُمُوّها، منذ سنّ الخامسة وحتّى العاشرة. وبجانب اسمها اسم أخيها الميت: خورخي، بخطوط توقّفت عند سنّ السابعة. وبينما كنتُ أفعل ذلك، كنتُ أستسلمُ لفكرة مخاطِرة، راحتْ تغزل خيوطها في ضميري، من وراء ظهري تقريبًا، ولا أزال لا أعرف إن كانت ممكنة التنفيذ أم لا.

- هل يمكن أن نعرفها؟- سأل أوكان.

- فرّغتُ الخزانة بضلفها الثلاث، واضعًا الملابس على السرير، بطريقة يمكن أن أُعيدَها إليه بالترتيب نفسه. لم أستطعْ مقاومة شَمٍّ بعض ملابس لوثيا، السّيّدة، رغم أني حاولتُ ألا أتورّط في ذلك، إذ بدا لي حَدَثُ لمسها شبه مرضي. فعلتُ ذلك، في النهاية، بكلّ احترام ممكن. وبعد أن فرّغتُه، تحقّقتُ من أن الجدار الخلفي يتكوّن، كما كنتُ أتذكّر، من ثلاثة ألواح متّصلة فيما بينها بحليات، تُستخدَم كعنصر تزييني، كما تفيد في مداراة الفواصل. حسبتُ أن اللوح الأوسط يقع بالتقريب في منتصف الخزانة المنحوتة في الحائط، والتي صارت مستترَة تمامًا. والشغف انتصر عليّ تقريبًا.

- لماذا؟- سأل أوكان.

- ذهبتُ بسرعة إلى المرأب، حيث وَجَدْتُ، كما توقّعتُ، صندوقَ

العدّة. أخذتُهُ، وعدتُ إلى غرفة النوم. حرّكتُ الخزانةَ القديمةَ، لأفصلَها عن خزانة الحائط، وخلعتُ بابيَّ الأخيرة، وكانت غائرَة ما يكفي، ووَضَعْتُهما داخل الخزانة نفسها فوق الأدراج، التي كانت تتحرّك من مكان لآخر، وكانت مسطّحة. ثمّ خلعتُ، دون أيّ تجريح، اللوحَ الخلفي الأوسط للخزانة ذي الثلاث ضلف، واستخدمتُ لهذا اللوح مفصّلات خزانة الحائط، لأُحوِّلها بذلك إلى باب عمليّ مستتر خلف الحليات. أعدتُ لصق الخزانة الخشبية بالحائط، ودَخَلْتُ فيها، وتأكّدتُ من أني يمكنني الدخول دون عائق للفراغ الكامن وراءه. فمررتُ إلى خزانة الحائط، وأغلقتُ البابَ السّرّيّ بالجزء الخلفي للخزانة ذات الثلاث ضلف، وكأن شيئًا لم يحدثْ. كانت الإثارة في أقصاها، تخيّل، هكذا أعدتُ صندوق العدّة إلى مكانه، ورجعتُ إلى الدور العُلويّ، وأخذت بطّانيات قديمة، ونوعًا من الطاسات القديمة، وعدتُ بها إلى غرفة النوم. وَضَعْتُ البطّانيّات القديمة فوق أبواب خزانة الحائط، وفَرَدْتُ جسمي على آخره، لأتأكّد من مدى راحته. كانت هناك مسافة كافية لوَضْع الطاسة، وفي الواقع، لم أكنْ أفكّر في استخدامها إلا في حالة الضرورة القصوى. بإيجاز، بينما تكون العائلة في البيت، سيمكنني أن أعيش وأنام بالداخل، في هذا المكان الذي وصفه الرجل، المُسمّى فيدي، بأنه المُعتَقَل. لم يكن ينقصني شيء، حتّى الإضاءة الكهربائية عندي، إذ بفَتْح باب الخزانة كان يستجيب مفتاح أوتوماتيكي، ويشعل لمبة صغيرة. وبإزالة تلك الأبواب وتحرير المفتاح من مهمّته، كان يكفي، لإشعال اللمبة أو إطفائها، فكّها قليلاً أو ربطها. من أجل ذلك، تحتّم عليّ أن أتركَ اللمبة عارية، أن أنزعَ عنها غطاءً بلاستيكيًا مزيّنًا ومثبتًا بصمولتَيْن.

- كأنكَ في قبر- أشار أوكان بنبرة، خَرَجَت جنائزية، رغم أنه قصد أن تكون احتفالية.

كان الجمهور يضحك بقهقهة، ويصفِّق بعنف منذ برهة. فكّر دميان أن المشاهدة لابد كسّرت التّوقّعات كلّها. وبالفعل، قرّر مخرج البرنامج أن يُعلِّق أو يُؤخِّر مجموعة إعلانات، لأنه لم يجد اللحظة المناسبة لمقاطعة الحوار. ولمّا هدأ الجمهور، حكى دميان أنه عقب إعادته الملابس إلى مكانها، وإعادة كلّ شيء إلى طبيعته قبل العملية، قد أخذ دشًا، وارتدى الملابس الداخلية النظيفة لرجل البيت، وارتدى فوقها الطَّقْمَ الرياضي الذي عثر عليه في الدور العُلويّ.

- وماذا فعلتَ بملابسكَ؟- سأل أوكان.

- وزّعتُها بين أدراج خزانة الحائط، كذلك فعلتُ بالحذاء، إذ عثرتُ على شبشب قديم أيضًا، شبشب بيتي مريح جدًا، وَجَدْتُه حيث وَجَدْتُ الطَّقْمَ الرياضي.

- وبعدها؟

- تركتُ الوقت يمرّ. وعندما حانتْ ساعة الغداء، أعددتُ لنفسي بيضًا مقليًا وسلطة، ونظّفتُ المطبخ مرّة أخرى، وتركتُ الوقت يستمرّ في المرور.

- وفيما كنتَ تفكّرُ بينما كنتَ تتركُ الوقت يمرّ؟

- كنتُ أفكّر في أني نسيتُ شيئًا، لكني لم أستطعْ تذكُّر ماذا. الحقّ أن هذا الشعور لازمني طيلة الصباح.

- ذلك لأن رأسكَ مزدحم بأشياء كثيرة - تسرّع أوكان.

- ماذا تقول؟! على العكس تمامًا. لم تكنْ حياتي معقّدة أبدًا. كما ترى، طوال تلك الساعات لم يهتزّ موبايلي إلا مرّة واحدة، وكانت رسالة

من المصرف. أيّام وأسابيع تمرّ دون أن يرنّ. أحيانًا كنتُ أتّصل بنفسي من الهاتف الأرضي، لأتحقّق من أنه لم يصبْهُ تلفٌ. هناك أناس كثيرون يفعلون ذلك، صحيح؟ عندما لا يرنّ الموبايل، مثل هؤلاء المُوَسْوَسِيْنْ الذين يضعون أيديهم على قلوبهم، ليتأكّدوا أن قلوبهم لا تزال تنبض. على الهاتف الأرضي، لم أكنْ أتلقّى مكالماتٍ أيضًا، لكنْ، لم يخطر ببالي أن تَلَفًا يمكن أن يصيبَهُ.

- مناسبة ذلك كلّه، يا دميان، أنكَ قد نسيتَ شيئًا، هل استطعتَ تذكّره؟

- آه، نعم.

- وماذا كان؟

- التهاب المعدة. لقد اختفى التهاب المعدة.

-٧-

عادت المرأة والمراهقة معًا في منتصف النهار.

- سمعتُ ضجيجًا عنيفًا - قال دميان لوبو لسيرخيو أوكان - ميّزتُ في الحال أنه صوت باب المرأب عند فَتْحه. كان من الأبواب المهتزّة، ذات الطَّبَقَتَيْن، وعند ارتفاعه للسقف يُسبّب انتفاضة صغيرة.

- وأين كنتَ في هذه اللحظة؟

- كنتُ في الصالون، أقرأ كتيّب استخدام شفّاط المطبخ. لقد تصادفتُ مع دِرْج، به كتيّبات لاستخدام الأدوات المنزلية كلّها بالبيت.

- وماذا فعلتَ؟- سأل أوكان مُقاطِعًا بجفاء ضحكات الجمهور، حتّى لا تفقدَ المقابلةُ إيقاعَها.

- هرولتُ إلى غرفة النوم، طبعًا، ودَخَلْتُ الخزانة ذات الثلاث ضلف، ومن خلالها، بعد أن أبعدتُ الملابس، بلغتُ فتحةَ خزانة الحائط عبر الباب الخلفي السّرّيّ. وأخذتُ معي كتيّب استخدام الشفّاط، فربّما تروق لي القراءة هناك.

عاد الضيوف للضحك من جديد.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك، مكثتُ هناك، متيقّظًا للضجيج القادم من أنحاء البيت، كان ضجيجًا خفيفًا جدًا، يبلغ المخبأ رغم أن باب الغرفة كان مفتوحًا كما تركوه عند خروجهم.

تزايد انتباهُهُ لحركة البيت حتّى نسي الشو التلفزيوني لدقائق. كان يقرأ كلّ صوت بنفس قوّة مَنْ يقرأ نصًا مَمحُوّ نصفه، بكلمات وحروف شبه غائبة. مع ذلك، توقّع فورًا أن المرأة وابنتها وَصَلَتا وحدهما. ربّما لديهم سيّارتان، كما كان يحدث في عائلات كثيرة، الكبيرة والجديدة يستخدمها الأب، والأخرى الصغيرة وربّما المستعمَلَة من نصيب الزوجة.

كان دميان، تحت ضغط مُفرِط، يتنقل بفوضى من الواقع إلى برنامج أوكان، ومن برنامج أوكان إلى الواقع. لم يكن يسيرًا حضوره في المكانَيْن، في الوقت نفسه. كان الصوتان النسائيان يبلغان مخبأه، لكنْ، دون نقاء كافٍ لفَهْم محتوى الحوار. كانت النبرة، على أيّ حال، تبدو هادئة، مثل النبرة اليومية لتبادُل المعلومات والتنبيهات ذات الطابع العملي. أنصتَ لصوت أبواب تُفتَح وتُغلَق، لخطوات تروح وتجيء، لكُحّاتٍ، لهمهمةٍ تليفزيونية بعيدة ... بعدها، بعد وقت غير معلوم، دَخَلَت المرأةُ غرفةَ النوم. شعر دميان بوصولها، سمعها تتحرّك من جانب لآخر.

- هل فتحتِ الخزانة؟- سأل أوكان.

- نعم - قال -، أعتقد لتُغيِّر ملابسها. وتركتْها مفتوحة برهة، بحسب ما استنبطتُ عبر وضوح الصوت.

- ألم تخشَ اكتشافها للباب السّرّيّ الذي يربطها بخزانة الحائط؟

- لا. الحليات كانت تغطّي نقط المفاصل، والملابس كانت تغطّي خلفية الخزانة تمامًا. لقد صنعتُ بوعي هذه التغييرات.

- هل كنتَ واعيًا أنها حين تسحب أو تضع فستانًا ستكون يدها على بُعْد شبر منكَ؟

- نعم، وأن ما يفصل بيننا ليس إلا لوح خشب رقائقي نحيل. مع ذلك، كنّا كأننا في بُعدَيْن متوازيَيْن للواقع. قريبان جدًا وبعيدان جدًا، في الوقت نفسه.

- قلْ لي الحقيقة، ألم تشعرْ بالخوف؟

- لا، فقط ...

- ماذا؟

- تساءلتُ إن كانت تلك إحدى أشكال الحجب. إن كان الربّ، لأقول شيئًا رغم أني غير مؤمن، كان على الجانب الآخر من جدار نحيل جدًا مثل الجدار الذي كان يفصلني عن المرأة.

- وبماذا أجبتَ؟

- نعم، أنه ربّما نعم.

- وماذا أيضًا؟

- حدستُ أن المرأة ابتعدتْ نحو السرير تاركةً، كما أقول، باب الخزانة الأوسط مفتوحًا.

كان الصمت في الاستوديو التلفزيوني عميقًا جدًا حتّى إن النحنحة تتسبّب في فضيحة. ساد انطباع بأنه حتّى من الممكن أن تُسمَع رمشة المشاهدين إن رمشوا. سكت أوكان فيمتو ثانية، ليُكثّف هذا الشعور، ثمّ ألحّ:

- وهل كنتَ تفكّر أنكَ مُحقّ؟

- أيّ أذى أوقعتُهُ بأحد؟

- لا أعرف، أكمِلْ.

- لابد أن المرأة، كما أقول، غيّرَتْ ملابسها، وأغلقَت الخزانة. بعدها دَخَلَت الحمّام، إذ أنصتُّ بعد قليل لصوت شَدّ السيفون، أعقبه صوت حنفية الحوض. كما قد تخيّلتُ، كانت من الأشخاص الذين يغسلون أيديهم بعد الحمّام.

حين انتهت الضحكات كَرَدّ فعْل لهذه الدّقّة، حمّس أوكان ضيفه على سَرْد ما حَدَثَ.

- عادت المرأة إلى غرفة النوم - قال لوبو - وسمعتُها تتكلّم في الهاتف. اضطررتُ لموارِبة الباب السّرّيّ، لأطلَّ برأسي، وأميّزَ كلماتها. كانت تتحدّث مع زوجها. سألتْهُ إن كان عاد إلى البيت بالنهار، ولابد أنه أجابها بـ لا.

- شيءٌ غريبٌ يحدث - أضافتْ بعد صمت وجيز -، كنتُ أظنّ أننا لم نغسل الفناجين، ولم نُرتِّب السرير، أم أنكَ رتَّبتَ السرير قبل خروجنا؟

- لابد أن الزوج - قال دميان لأوكان - أجاب بردٍّ معقول، بحيث تراجعت المرأة عن التفتيش. سمعتُها تمشِّط الغرفة قليلاً، ثمّ خَرَجَتْ، وأغلقت الباب.

- وأنتَ هناك، في الأعماق.

- وأنا هناك، نعم. كانت بطّارية الموبايل قد نفدتْ، وبذلك صارت

عزلتي عن العالم تامّة، كأني في مركبة فضائية متوجّهة إلى المرّيخ، وقد فَقَدْتُ الاتّصال بالقاعدة. في أحيان كثيرة، قبل النوم، كنتُ أتخيّل هذه الفكرة.

- فكرة السَّفَر إلى المرّيخ؟- سأل أوكان.

- نعم، إلى المرّيخ.

- للتّعرّف على بشر؟- أعاد الشومان السؤال لاذعًا، ومضحكًا للجمهور.

تأمّل دميان لوبو عدّة لحظات.

- على بشر - قال حانقًا بوضوح من سخرية المذيع - أنا أعرف بشرًا. كنتُ سأذهب إلى المرّيخ حتّى لا أضطرّ لتحمّل البشر.

- أنتَ لستَ اجتماعيًا؟

- فلنقل إني غريب.

- غريب بأيّ معنى؟

- بمعنى أني شخصٌ طيّبٌ، أنا شخصٌ طيّبٌ، لم أتسبّبْ في أذى لأيّ أحد، وهذا ما أبعدَني عن العالم.

- الطِّيْبة تُبْعِدُ؟

- نعم.

- أتَعدّ العالم شرّيرًا؟

- وخطيرًا.

- وأنتَ كنتَ تُحسِّنه أو تُقلِّل خطورته بهذه المغامرة؟

- ربّما، الزمن وحده سيُقرّر.

- أليس الأصحّ أن تؤكّد أنكَ كنتَ تنتقم منه؟

- أنتقم من العالم؟ ولا خطر ببالي.

- ماذا حَدَثَ أيضًا؟

- وَصَلَ الزوج متأخّرًا، في التاسعة. سَبَقَهُ ضجيجُ باب المرأب عند فَتْحه وغَلْقه. كان لديهم سيّارتان، كما قد تخيّلتُ. وبعد عدّة دقائق داخل البيت، دَخَلَ غرفة النوم، كما فعلتْ زوجته، وغيّر ملابسه كذلك، بحسب ما استطعتُ أن أحدس. حين خَرَجَ، انتقل الضجيج نهائيًا للطرف الآخر من البيت، وبدايَة من لحظة محدّدة، لم يكن يصلني إلا صوت التلفزيون المزعِج والصخب الطارئ بفَتْح باب أو غَلْقه. أكلتُ ثَمَرَتَيَ فاكهة، قد أخذتُهما معي احتياطيًا، مع كتيّب استخدام الشفّاط. ثمّ جاءتْني رغبة في التّبوّل، غير أني لم أجرؤْ على الخروج، ففعلتُها في الطاسة. ناما في الثانية عشرة. لم يتكلّما إلا قليلاً، ولم يتبادلا أيّ معلومة مفيدة لي. غرقا في النوم والراديو مفتوح، وبعد ساعة، انطفأ وحده، أو أطفأه أحدهما.

- هل كان لديكَ ارتيابٌ في أن ما تفعلَه صحيح؟- ألحّ أوكان.

- ارتياب، لماذا؟ تلك الليلة نمتُ أفضل من سابقتها، فمخبأ الخزانة بات أكثر راحة بفضل السرير المرتجل. كما كان مفيدًا جدًا للعمود الفقري، إذ كان مستقيمًا ومتّصلّبًا. وصحوتُ عند الفجر، في الساعة الثالثة، ولم يكنْ ذلك غريبًا فيّ، لأن نومي مضطرب. الصمت والعتمة كانا مطلَقَيْن.

لم أتجرّأ على فَتْح نور الخزانة، فربمّا يتسرّب خطّ ضوء إلى الخارج. كنتُ أتمنّى لو معي راديو بسمّاعات، فبهذه الطريقة، كنتُ سأواجه الأرقَ في بيتي. أنا أحبّ البرامج الليلية، حيث تتّصل الناس بالإذاعة، وتحكي أشياءَ تخجل من حَكْيها في ضوء النهار. كنتُ مستاءً قليلاً من رائحة البول في الطاسة، هكذا فكّرتُ أني في المستقبل يجب أن أنظِّم نفسي حتّى لا أحتاجَ إلى الحمّام منذ منتصف الظهيرة وحتّى ساعات الصباح الأولى. المسألة لا تتعدّى التّوقّف عن الشرب بدايَة من ساعة محدّدة.

- وكيف كنتَ تعرف ذلك؟

- طيّب، إحم ... إنها مسألة شخصية، لكني حكيتُ لكَ أشياءَ كثيرة، وواحدة زيادة لن تؤثّر. انظرْ، لقد كنتُ أتبوّل في السرير حتّى صرتُ كبيرًا جدًا ...

أسكتَ دميانُ الضحكاتِ الغزيرة جدًا والقوية أكثر من المعتاد، واستنتج من إيماءة أوكان أنهم يُخبرونه عبر السمّاعة أن نسبة المشاهدة ترتفع. القذارة عادّة ما تربح، خاصّة لو أدرناها كما ينبغي. حين انخفض الضجيج، واصل حديثه دون تغيير تعبير الجدّيّة الحزينة التي اعتاد أن يردّ بها على تظاهرات الجمهور.

- في مناسبة ما، حين كنتُ في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، حضرتُ مع مدرستي معسكرًا صيفيًا، وكنّا ننام ستّة بالغرفة، في صفّيْن من ثلاثة أَسِرَّة. كان التّبوّل هناك كارثة، خاصّة أنهم خصّصوا لي سريرًا عُلويًا، وبالتالي فرضتُ على نفسي ألا أشرب ماءً منذ ساعة الغداء وحتّى اليومِ التالي. حتّى في ساعة الغداء، كنتُ أشرب قليلاً جدًا؛ وفي حالة وجود حساء

كطبق أوّل، لم أكن أشربُ مطلقًا. بهذه الصيغة، بالإضافة لنوم قلق ربّما لم أنلْ فيه راحَة كافية، لكنه أتاح لي الانتباه لحاجات جسدي، تمكّنتُ من الحياة لأسبوعَيْن، هي مدّة المعسكر.

- ألم تتبوّل في السرير؟

- لا، كنتُ على وشك أن أفعلَها ذات ليلة، حلمتُ فيها أني في الحمّام، لكنْ، قبل أن أبدأ انتبهتُ أني في حلم، وصحوتُ. كنتُ أطلقتُ نقطتَيْن بالكاد. وتعلّمتُ ألا أثق في الأحلام.

حين استعاد الجمهورُ نفسَه من القهقهات، ألحّ أوكان على أن يتحدّث بتفاصيل أكبر عن ليلته الأولى داخل الخزانة.

- كان مثل بقاء سمكة الحنكليس في ثغرة بَحْرِيّة. أو مثل المكوث في فقاعة. العالم كان يتحرّك، الأرض كانت تطفو في الفضاء، وأنا كنتُ أترنّح كأني داخل كبسولة، مثل رائد فضاء.

- ولمْ تشعرْ باختناق؟

- لا، على العكس، كنتُ أكثر حُرّيّة من أيّ وقت مضى. كأن هذا الخزانة مركز الكون، كأن العالم يتمدّد من خلاله ..

في تلك اللحظة، في حوالي الرابعة فجرًا، سمع في الغرفة ضجيجًا، خَطَفَهُ من الشو التلفزيوني. ألصقَ أذنَه بالخشب الرقائقي، واستنتج أن واحدًا من شاغلي السرير قد نهض، ليروح الحمّام، ويعود سريعًا إلى مضجعه. سمع صوت شَدّ السيفون دون أن يسمعَ صوت حنفية الحوض، ففكّر بالتالي أنه الرجل، إذ على عكس المرأة لا يغسل يَدَيْه عقب استعمال الحمّام.

حين عاد كلّ شيء إلى نظامه السابق، شَعَرَ دميان لوبو بأن سيرخيو أوكان يدعوه للعودة للبلاتوه، غير أنه لم يستجبْ. بدأ هذا العرض التلفزيوني المستمرّ في إرهاقه. إرهاق اعتاد أن يعقد علاقة مع خسارات عابرة لجودة البرنامج الحقيقية، جودة لا تحتفظ دائمًا بمستواها المكثّف. في حالات الإحباط هذه، لا يمكن تصديق البرنامج التلفزيوني بالطريقة نفسها التي لا نُصدّق بها الفيلم الذي نشاهده، أو الرواية التي نقرؤها، حينئذ اختفى، ورغم أنه كان يسمع نداء أوكان إلا أنه كان يتصنّع الصَّمَم. وكلّما طال غيابه، عاد برغبات أقوى، كأن البُعْد يعزّز الفانتازيا دون أن يملكَ حيالها إلا الانتباه الطافي.

في تلك الليلة لم يعدْ. نام تقريبًا في الخامسة، وأيقظه في السابعة إلا الربع صوت الراديو، بأخبار وَصَلَت غامضة إلى ثقبه. بدأت حركة البيت بطقوس مشابهة لطقوس اليوم السابق. حين تركت العائلةُ البيتَ، خَرَجَ دميان من المخبأ، فرّغ الإناء الذي كان قد تبوّل فيه، تناول فطورَهُ، غسلَ الأواني، رتّب السريرَيْن، أخذ دشًّا، غيَّر ملابسه الداخلية، ووَضَعَ الملابس المتّسخة في سلّة من الخوص، وَجَدَهَا في الحمّام، واستعملتْها الفتاة، وراجعَ الخزائن كلّها بحثًا عن معلومة، قد تفيدُه في البقاء على قيد الحياة في ذاك العالم الغريب.

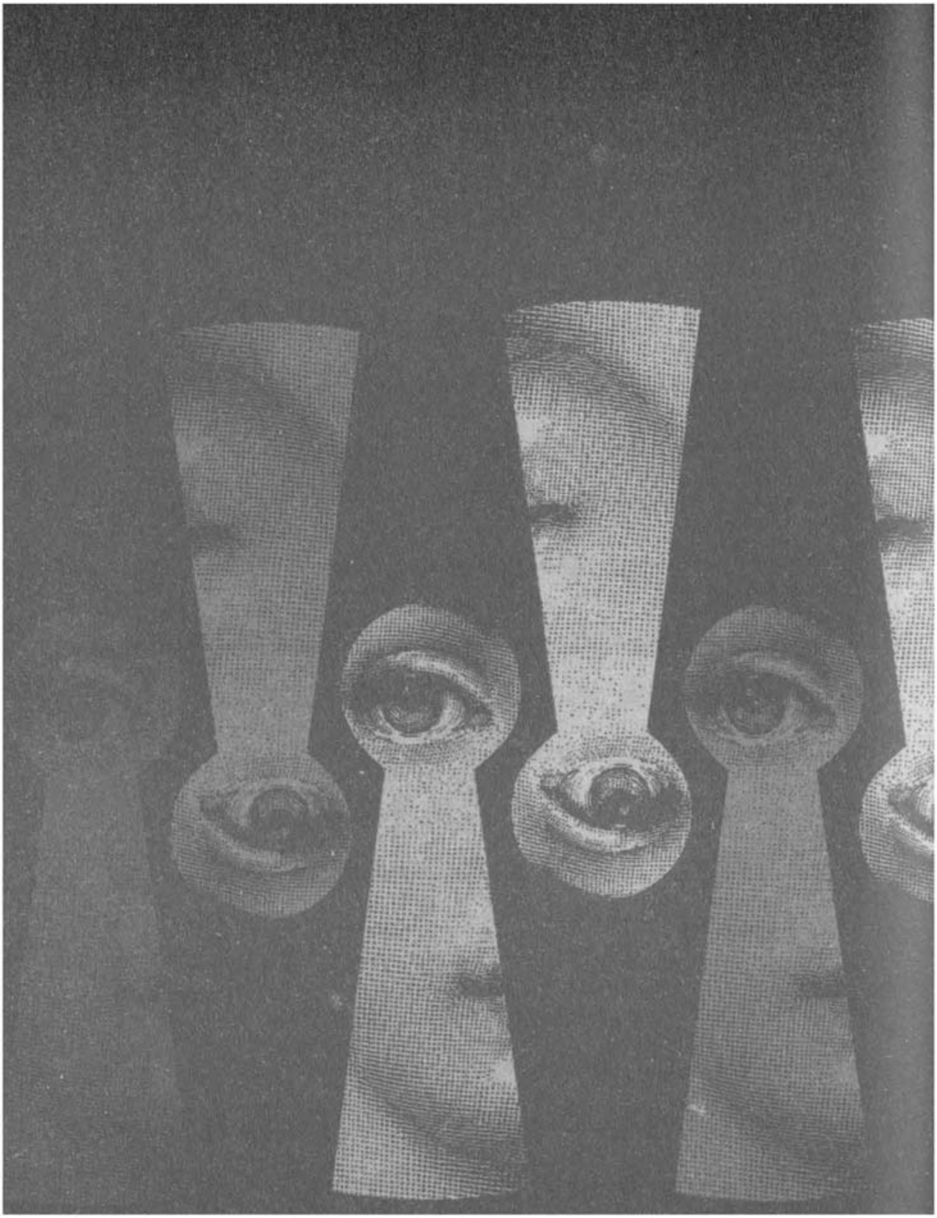

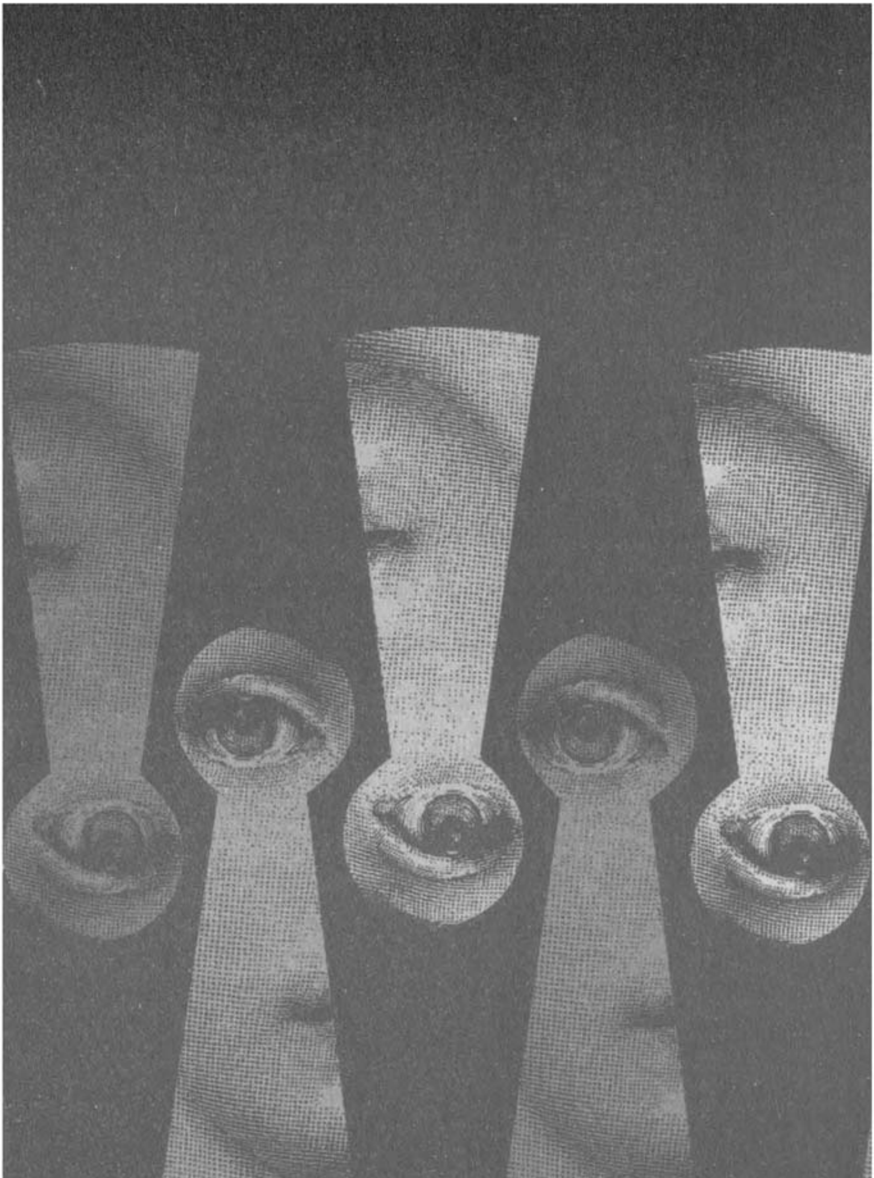

-١-

كرجل روتيني، لم يُكلّفه شيء أن يخلقَ في الأيّام التالية مهامًا، تحترم جدول البيت الذي تلقّفه، مهامًا بدأ يتحمّلها بشكل تدريجي. هكذا، بالإضافة لانشغاله بترتيب الأَسِرَّة وغسيل الأطباق، بدأ في تجهيز عشاء العائلة، بما يجده في الثلاجة. بعد ذلك، بَرْمَجَ أيّام التنظيف والمكواة. يستخدم المكنسة الكهربائية أيّام الاثنَيْن، والتنفيض أيّام الأربعاء والجمعة. وبعد أربعة أو خمسة أسابيع من دخوله، كان قد تكفّل عمليًا بالأعمال اللازمة كلّها لصيانة بيت بهذه الخصائص.

ورغم أنه لم يكن يبدأ في مهمّة إلا بعد انتهاء المهمّة السابقة بشكل طبيعي، حتّى لا يُثير في الأسرة إنذارًا مُلفِتًا، إلا أن المرأة وحدها، لوثيا، قد انتبهتْ لبَعْد التغيير. أما الزوج والفتاة، فقد كانا يعيشان في عالم، الطبيعي فيه أن يهتمّ أحدٌ غيرهما بالمسائل المنزلية. إمّا أنهما لا يتساءلان مَنْ هذا الأحد، أو أنهما يفترضان أنه الأمّ. أو هذا على الأقلّ ما أحسّه من مكان عزلته.

وذات يوم، بعد قليل من استقراره، أنصت وهو بالخزانة لحوار هاتفي بين لوثيا، التي حَدَسَ أنها قاعدة على السرير بالقرب من الكومودينو، وأمّها. بعد عبارات التحيات، لفَّت الابنة، ودارتْ، كأنها متردّدة في مشاركة أمّها ما يحدث في بيتها. في النهاية، فتحت الموضوعَ بتردّد:

- ماما، لو قلتُ لكِ شيئًا، هل ستضحكين؟- سألت.

- ...

- أتذكرين أني قلتُ لكِ إني عثرتُ على خزانة أجدادي بأحد الأسواق؟

- ...

- جاءت ملائمة جدًا لغرفتنا، نعم. كما أن سعتها مهولة، أكبر بكثير من خزانة الحائط التي اضطُررنا لإخفائها.

- ...

- الحال أنه ليس عندنا حائط آخر، لنضعَها عليه. لكنْ، دعكَ من ذلك، ما كنتُ سأقولُهُ لكَ لن تُصدِّقيه. منذ دَخَلَت الخزانة من الباب، أقام في البيت، كيف أشرح لكِ، نوع من الحضور الخفيّ والمحسّن ...

- ...

- كيف لاحظتُ ذلك؟ لاحظتُهُ في الأشياء التي صارت مرتّبة، كأن الأشياء تُرتِّب نفسَها من تلقاء نفسها.

- ...

- كنتُ أعرف أنكِ ستضحكين.

- ...

- لا أحكي لكِ شيئًا آخر، كنتُ أعرف ردَّ فعلِكِ مسبقًا.

- ...

- ربّما يُضحككَ الموضوع، لكنه أنقذ حياتي. هذا البيت أصعب من شقّة، واضطررنا للاستغناء عن الخادمة، لأنهم، كما تعلمين، خفّضوا لي راتبي، وحال المحلّ لا يسرّ. حسنًا، حالته سيّئة.

- ...

- فيدي؟ فيدي لا يستطيع حتّى قَلي بيضة، ولا تشغيل الغسّالة أو غسّالة الأطباق. وماريا تعيش سنّها ... ماريا، يا ماما، لديها مشاكلها، لم أقلْ لكِ حتّى لا أشغلكِ، لكنْ ...

- ...

- يعني، مشاكل تغذية. ليست خطيرة، كثير من الأطفال لديهم خَلَل من هذا النوع في هذه السّنّ، لكنها تختلف من حالة لحالة. في النهاية، ليست على ما يرام. لسنا على ما يرام.

- ...

- لا، سأحكي لكِ.

- ...

- الطقس؟ الطقس رائع، وقّفنا المدفأة، لكنها تمطر كثيرًا أغلب الأيّام. يقولون إن أبريل أكثر الشهور إمطارًا منذ عام، لا أعرف ماذا، من القرن الماضي.

كانت محادثةُ المرأة الهاتفية من غرفة النوم، بالإضافة للأحداث اليومية بالبيت، تمنح دميان صورة عن أعضاء المجموعة. وكان لكلّ منهم

ملامحه ومشكلاته التي ترتبط بالآخرين مكوِّنَة بذلك نسيجًا مُلفِتًا من تآلفات واختلافات، تقيم السجّادة العائلية. لم يكن قد انتبه أبدًا لعائلة، ولا حتّى لعائلته نفسها، كَمَنْ يراقب بميكروسكوب مُستعمَرَة من الكائنات الدقيقة. وكانت نتائج الاختبار شعورًا بالدهشة والاضطراب.

وفورًا تحقّق من أن فيدي، الزوج، يدير محلاً، يمتلكه لِلُّعَب الإليكترونية، ويقع في مركز تجاري. عرف كذلك أن المرأة تعمل لدى رجل أعمال، يمتلك محطّات بنزين، وسلسلة من محلات المخبوزات المعروفة بمنتجاتها اليدوية. تحقّق من أن لوثيا وفيدي قد تزوّجا منذ خمسة عشر عامًا، وأن ماريا، المراهقة، التي وَجَدَ في كمبيوترها يومياتٍ حميمةً، قرأها بسرعة بشعور حانق بأنه ينتهكُها، كانت البنت الوحيدة في فصلها التي لم تأتها الدورة الشهرية، وهو أمر كان يشغلها ويريحها بالدرجة نفسها. كانت فكرة الدم تثير اشمئزازها، وكان يثير لهفتها أنها مختلفة عن زميلاتها. على أيّ حال، كانت قد أقنعتْ أبوَيْها أنها قد جاءتها، إذ كانت تُبقِّع بالأحمر، دوريًا، حفاضات صحّيّة، وتُلقي بها في سلّة المهملات بالحمّام.

خبّأ دميان جزءًا كبيرًا من تلك المعلومات كلّها على سيرخيو أوكان الذي شرع في الابتعاد. كان يُقلّل من حضوره لبرنامجه مع مرور الوقت، وعندما يفعل كان يبدو أكثر تحفّظًا من قبل. البُعْد كان ناتجًا عن محاولات الشومان، ربمّا الحقود على نجاح دميان المتنامي إعلاميًا، لانتزاع البطولة منه في اللقاءات الأخيرة. كانت أسئلتُه دومًا مُحمَّلة بالتّهكّم، أحيانًا بسوء النّيّة، وبتلميحات حول احتمالية تأخّر ضيفه العقلي. ورغم أنه كان مُدرِكًا أن أوكان محض مخلوق من جانبه، إلا أن دميان كان يحتفظ اتّجاهه بشعور بالاستياء، فيشتاق له، من جانب، ويبدو له منطقيًا، من جانب آخر.

كان الروتين العائلي يتغيّر في نهاية الأسبوع. أيّام السبت يعمل الزوج في محلّ اللعب بالمركز التجاري المفتوح طوال اليوم، بينما الأمّ والبنت يُكرّسان الصباح للاسترخاء، رغم أنهما يتسوّقان عادةً بسوبر ماركت، لابد أنه قريب من البيت. لاحظ دميان أنهما يشتريان أكثر من اللازم وبتبذير. وعرّفهما بأنهما مُشتَرِيَتَان شرِهَتَان، دون أدنى قُدرة تنظيمية. أجنحة الدجاج، وكانا يشتريانها بالعشرات، كانت تَفسد على أرفف الفريزر، كذلك الخضروات والجبن، التي عادةً ما كانوا يمسحون طبقة العَفَن منها، ليبلغوا ما يمكن أن يُؤكَل. وفي اليوم الذي بدأ في تنظيف الثلاجة، أخرج من عمقها علبَ زبادي مخمَّرة وصلصة حامضة، لابد أنها مركونة بعد استخدامها منذ شهور. حَسَبَ أنهم لو ادّخروا من مشترياتهم، قد يمكنهم دَفْع خادمة.

مساء السبت، اعتادت الابنة على الخروج مع صديقاتها، والأمّ البقاء في البيت، أو زيارة محلّ الألعاب، لتُساعد زوجها والموظّفة التي تعمل معه. أحيانًا كانا يعودان متأخّرَيْن، أحيانًا بمفردهما، وأحيانًا مع الابنة، التي يرافقانها من السينما، أو من بيت إحدى صديقاتها. وحين لا يصطحبانها، كانا يُجبرانها على العودة قبل العاشرة والنصف، وهو المعاد الذي كانت تحترمه في العادة. وقليلاً ما كانت تنام في بيت زميلة، أو تنام زميلة في بيتها.

وأيّام الأحد، لم يكنْ غريبًا أن يظهر أصدقاء وعائلات، وأن تمتدّ ساعة الغداء حتّى العصر. في بعض الآحاد، كانوا يأكلون بالخارج؛ ودميان لم يكنْ يستطيع دومًا تحديد أين يأكلون، إذ كان الأمر يتوقّف على ما يسمعُهُ من الخزانة، وكان الزوجان قليلاً ما يتحدّثان عند وصولهما لغرفة النوم. على أيّ حال، كانوا يعودون مبكّرًا، إذ كان وقت فراغ الشابّة ضيّقًا جدًا في هذا اليوم من الأسبوع، وكانت تُكرّس وقتها، أو لابد أن تُكرّسه، للمذاكرة.

في حالة عدم وجود ضيوف، كانت العائلة تأكل في الصالة، بينما تشاهد الأخبار. الأبوان يقسّمان الظهيرة بين التلفزيون ومهامّ أخرى متعدّدة مثل العناية بالحديقة التي لم يكنْ دميان يعتني بها على الإطلاق خشية أن يكشفَهُ أحدُ الجيران، أو يُصوِّره الستالايت. لم يكونوا يقرؤون، إذ لم يكن ثمّة كُتُب، إن استثنينا رفوف الكُتُب الخارقة الموجودة في الدور العُلويّ، والتي لابد أنها تنتمي لفترة، كان فيها فيدي، أو لوثيا، والأرجح أنها لوثيا، يهوى هذه المسائل.

حين سأله أوكان ذات يوم لماذا قاوم التّحقّق في أيّ منطقة بالمدينة يقع بيت العائلة، أجاب بأنه لو عرف هذه المعلومة الجغرافية، لانتهى السِّحْر.

- السِّحْر؟!- سأل أوكان بتعبير مُتهكّم-. ما السِّحْر في هذا الوَضْع المخالف بوضوح للقانون؟!

بدت الإشارة إلى القانون خارج المكان، بالتالي نَهَضَ، وخَرَجَ من البلاتوه تاركًا الكلمة مُعلّقة في فم أوكان. لم تكنْ هذه المرّة الأولى التي يفعلها، ليُحبِطَ المذيعَ، الذي يفقدُ برنامجه مشاهديه، كلّما انسحب عنصر الجذب الرئيس.

كانت العائلة تتحرّك، في النهاية، بنظام، يتبع قواعد منضبطة بالتمام، ورغم أن أعضاءها قليلاً ما يتجادلون، إلا أنهم كذلك قليلاً ما يُظهرون مشاعرَهم. بغياب الحُبّ، كان يسري بينهم نوعٌ من اتّفاق ضمني بالتعايش، كأنهم، بدلًا من كونهم في بيت، وَجَدُوا أنفسهم بالصدفة في صالة انتظار بمحطّة قطار، حيث ينتظر كلّ منهم أن يرحل، عاجلًا أو آجلًا، إلى قبلة مختلفة.

كان الرجل والمرأة يتضاجعان على فترات بعيدة، دون أن يغامرا إلا باتّباع روتين مستقرّ برسوخ. ولم يكن مجموع تأوّهاتهما ولهاثهما يثير في دميان، بعيدًا عن الإثارة الجنسية، إلا نوعًا من الاستغراب البارد. هكذا، بينما كان الزوجان يقتربان من الأورجازم (كلّ منهما يقترب من نشوته الخاصّة، كقطارَيْن يتقابلان)، كان هو، من أعماق الخزانة، يتساءل إن كانت حياته كانت ستصير مثل حياتهما، لو كان قد اتّبع العادات نفسها المتّفق عليها بين الناس.

كان يتخيّل نفسه كأب لعائلة، يدير محلاً لِلُّعَب، ويبتسم متردّدًا، غير قادر على اتّخاذ قرار بالموافقة أو الرفض. في المقابل، كان يبدو له مريحًا أن يكونَ فردًا من تلك المجموعة، بوصفه شبحًا. قد لا يجد نفسه في أيّ دور من الأدوار الأخرى. لم يرَ نفسه لا كزوج ولا كزوجة ولا كابنة. فقط كحضور غير مَرئي، يستمتع بدور الرقيب، وهو فرع من فروع الصيانة.

كان يتساءل أحيانًا إلى متى سيستمرّ ذلك كلّه، ويتخيّل إمكانية أن يستمرّ طول الحياة. كان يتخيّل أن يتطوّر الأمر، بمعنى أن تأتي لحظة، يتمكّن فيها من هجر الخزانة، فيختلط بالآخرين دون أن يكون مَرئيًا، أن يلتقي بهم في المطبخ، في الصالة، في الممرّ، لكنْ، دون أن يروه. أن يكونوا أربعة غير أنهم سيبدون ثلاثة.

لم يكن دميان جامدًا أمام امتنان المرأة من عنايته بالبيت، فسعادتها المتنامية كانت مفضوحة. وفي لحظة محدّدة، بدأت لوثيا في إنزال بعض كُتُب الأشباح القديمة، والمخطّطة بغزارة، من الدور العُلويّ، ثمّ خبّأتْها في خزانة الأجداد، بالقرب جدًا من مخبأ دميان، حيث لا يمكن لزوجها ولا لابنتها العثور عليها. ثمّ بدأ دميان في قراءتها، معيرًا تركيزًا خاصًا للسطور

المخطّطة التي، بطريقة أو بأخرى، كانت تشير إليه. إليه كفرد في بُعْد آخر، له القدرة مع ذلك على التّحرّك في بُعْدها هي.

وفيما كان يجد نفسه في هذه الكائنات التي تعود من الموت، لتساعد الأحباب، كان أوكان يكتسب حضورًا أكبر، فلا يمكنه التّخلّي عنه. وذات يوم، قرّر دميان التّوقّف نهائيًا عن الحضور لبرنامجه التلفزيوني، وعرف بعد ذلك أن البرنامج توقّف لقلّة المشاهدة. وحين كان يتخيّل أن الشومان الناجح يتجوّل في الطُّرُقات، ويتوسّل عملاً من مديري القناة التي كان نجمًا فيها، كان يشعر بشكل غريب أنه انتقم. ومستغرقًا كما كان في تفاصيل حياته الجديدة، لم يكنْ يتساءلُ عن أسباب كراهيته لشخص لا وجود له خارج رأسه.

-٢-

جاء شهر مايو ممطرًا أيضًا. لم يلحظ دميان مطرًا بهذا البريق من قبل. وأحيانًا، بعد الانتهاء من المهامّ المنزلية، كان يتوه في تأمّلاته حتّى سال المطر بداخله. كانت الرياح تُنتج لمعانًا غريبًا، لم يكن قد انتبه له قبلًا، وكان يبدو انعكاسًا لحالته النَّفْسية. في الحديقة، كلّ شيء كان ينمو بسرعة مذهلة.

لقد حلّ شَغَفُهُ بقراءة كُتُب الأشباح والأطياف محلّ كتيّبات الأدوات المنزلية وكتالوگات التعليمات التي كان فيدي يُحضرها من المحلّ، ليدرس منها طريقة عمل بعض الألعاب الإلكترونية خاصَّة المعقّدة. ورغم أنه لم يهتمّ قبلًا بالمسائل ذات الطابع الخارق، إلا أن حكايات تلك الكُتُب كانت تُحرِّك فيه انجذابًا خفيًا. أكثر من قراءة العبارات، كان يبتلعها، يُقلّبها في فمه، يمزجها بريقه، ثمّ يتركها تسقط داخله، حيث تواصل مفعولها بقوّة إيحاء غريبة.

وذات يوم، بعد أن اطّلع عبر واحد من هذه الكُتُب على وجود شبح متخصّص في قَتْل الأطفال الذين لا يغسلون أيديهم قبل الأكل، أغلق عينَيْه، ورأى داخل رأسه طفلًا يدخل حمّام بيته، ويستخدم المرحاض، مقتصرًا بعدها على فتح الحنفية، ليخدع بخرير الماء والدَيْه. رآه يخرج في خياله من الحمّام تحت نظرة والدَيْه الراضية، ويسير بممرّ البيت ساحبًا دميته،

جاهلًا تمامًا حضور شبح مكلّف بحَصْد رأسيهما، هو والدمية. كانت كلمات تلك الكُتُب، ويرافقها إيقاع المطر المتواتر، تُشكّل في رأسه صورًا لاتّساق شرس، قليلًا ما يجد شبيهًا له إلا في هَلْوَسَات البلاتوه التلفزيوني، حيث كان سيرخيو أوكان مهيمنًا.

الحالة الشبحية تحتوي الآن على تجسيد غير مألوف. الموتى يتجوّلون في عالم الأحياء بشكل طبيعي مثل جريان ماء الحنفية أو ضوء اللمبات. كان يكفي تشغيل زرّ القراءة بتلك الكُتُب حتّى يفقد الواقع حدوده المعتادة، متمدّدًا في حضورات شفيفة، لكنْ، أكيدة. وكان هو أحد هذه الحضورات، هو، الذي كان منذ قليل يعيش خاضعًا لقوانين الفانين الشائعة، يتمدّد الآن بعيدًا عن جسده، ويتصرّف كنوع من الدايمون(*) حول الكون الذي يسكنه الأحياء، لكنه بالتحديد حول لوثيا، المرأة التي تعيش في هذا البيت، ويستعرض حولها ظلّه المُحسِن.

اكتسب في الحال بعض صفات الأطياف، الأطياف التي تعود أو التي لم ترحلْ بعد سواء لأنها لم تعثرْ على طريق، أو لأنها تعلّقت بتعلّق أحد شؤون العالم التي لم تُحلّ. ربّما قد وَصَلَ لهذا البيت داخل الخزانة، لأن قوى محدّدة وغير مَرئية مرتبطة بهذا الأثاث، قد قرّرت ذلك. لعلّه كان أداة لتلك القوى، ولعلّ الأحياء يستحيلون أدوات للموتى أحيانًا، كما قد قرأ في أحد الكُتُب عن أحداث غير قابلة للتفسير. لكنهم لا يختارون أيّ حيّ بالصدفة، بل ينبغي أن يتمتّع بصفات عقلية محدّدة، بالإضافة لحساسية مرتفعة مثل تلك الحساسية التي كان دومًا ضحية لها، أو مستفيدًا منها.

*) الدايمون: مصطلح ديني يوناني الأصل، كان يشير إلى «المصير»، ثمّ صار يشير إلى كائنات ذات قدرات إلهية أقلّ من الآلهة، نصفها حيواني، ونصفها بشري، وتُصارع من أجل الظلام. تمرّد هوميروس عليها، وعلى تقديم القرابين لها، وفَقَدَتْ أهمّيّتها أيّام سقراط الذي انتصر للعقل. (المترجم).

أحيانًا، بعد غَلْق أحد هذه الكُتُب، كان يُصاب بشيء من الحمّى، يُرجعها لكثافة القراءة. بدأ حينئذ بالردّ على السطور التي تخطّطها المرأة، بحيث أقام بين السطور حوارًا. ولأنها كانت تخطّط بالأزرق، اختار أن يخطّط بالأحمر. في البداية، اقتصرا على إبراز عبارات قد لفتتْ انتباههما أو صادفتهما بطريقة أو بأخرى. بعدها عملا على حروف أو كلمات مبعثرة، كان يمكن بها بناء عبارات مصكوكة جديدة.

- مَنْ أنت؟- كانت تسأله بعمل دائرة مُرقّمة حول حروف أو كلمات، بتجميعها تُكوِّن عبارة.

- ألا تعرفين؟- كان يجيب باتّباع العملية نفسها.

- أعتقد أني أعرف - كانت تجيب -. هل جئتَ لإنقاذي؟

- إن لم يكنْ لذلك، فلِمَ جئتُ؟- كان يجيب.

كان يحاول أن يكون مقتصدًا في إجاباته، بقناعة أن الاقتصاد في الكلام ينقل شعورًا بالذكاء أكثر من الإسهاب.

- هل الأشباح كلّهم أذكياء؟- سألت المرأة ذات يوم.

- الأذكياء كلّهم لهم جانب شَبَحِيّ - أجاب بتدوير السؤال، وهو ما تعلّمه من أبيه الهاوي للألعاب اللّغوية.

بهذه الطريقة، كان يبدو غامضًا أيضًا، وهي حالة لا غنى عنها، ليستمرّ في هذا الوَضْع. على أيّ حال، الصعوبات العملية المتعلّقة بطريقة التواصل كانت تُجبر كلَيْهما على كتابة رسائل موجزة، ما كان يلعب مبدئيًا في صالح دميان.

- ماذا فعلتَ اليوم؟- تسأل لوثيا.

- الأهمّ ما لم أفعلْهُ - يردّ هو.

ثمّ بدأ في التوفيق بين قراءات الكُتُب حول عالم الغيب مع غزواته للإنترنت من خلال كمبيوتر الفتاة. لم يكنْ يترك أثرًا على الجهاز إلا بصمته التي، لطبيعتها، لم تكن مَرئية للبشر العاديين. وذات يوم، عطس أمام الشاشة، وغرّقها بشذراته التي لم يُنظّفها حين لاحظ أنها اختلطت بشذرات ماريا. ربّما، هكذا فكّر أحيانًا، كان يترك في الهواء في أثناء ذهاباته وإياباته من جانب لجانب بالبيت أثرًا طفيفًا لرائحة جسده، ولتقشّرات ميكروسكوبية تتساقط من جلده أو بشرته المشعرة.

لم يشتقْ إلى التدخين الذي أدمنه لسنوات. أدرك أنه في كلّ نَفَس، حين كان يدخّن، كان يبحث عن النَّفَس الذي يتسبّب في إصابته بأذى، وهكذا كان يجد نفسه يدخّن السيجارة التالية، ومن هنا كان يُشعل السيجارة تلو الأخرى دون أن يُعلن الأذى أبدًا عن وصوله، ولا حتّى بالدرجة التي كان يتخيّلها. فكّر أن الكحوليّيْن يحدث لهم شيء مشابه مع الشرب. أنهم يسحبون شفطة وراء أخرى مطاردين هذه الشفطة التي، بعيدًا عن إخمادهم، قد تُضيئهم بشكل نهائي. لكن هذا النور يأتي دائمًا في الزجاجة التالية. والآن، الأنفاس التي لم يسحبْها، ويمكنه حصرها، لأنه قد حصاها من قبلُ، تقوده نحو نوع من النور المعاكس، يمكن فَكّ شفرة محتوياته.

طال شَعْر رأسه، وكذلك لحيته، إذ توقّف عن حلاقة ذقنه خشية أن يؤدّي استخدام المكنة إلى لَفْت انتباه صاحبها، فلحية كلٍّ منهما تختلف عن الآخر. هكذا باتتْ هيئته تشبهُ هيئة روبنسون، يعيش في جزيرة، يسكنها كائناتٌ من العالم الآخر.

كان يبحث في الشبكة عن حكايات الأشباح، يشاهد فيديوهات وصورًا، ويتساءل كيف ظلّ خلال سنوات طوال بعيدًا عن هذا العالم الحقيقي، ويتذكّر الطريقة التي بها كانت الأشياء تحدث، طريقة غريبة في ذاتها، فريدة جدًا، لا يمكن تصديقها إطلاقًا، ولا يمكن أن تكون إلا ثمرة فحسب لمصير، لا يمكن التّخلّص منه.

في تجوّلاته بالإنترنت، اشترك بالكثير من المنتديات التي تتناول الموتى والأطياف. كان أغلبها يفتقد للثِّقَل المطلوب، إذ كانت المداخلات تأتي من أشخاص غير مُتّزنين، أو من أناس فارغين، يقتربون من الموضوع، من أجل التسلية فحسب. لكنْ، في منتديات أخرى، كان ثمّة مشاركون، يلتفتون للتجارب الفارقة التي يرويها البعض بصراحة ودهشة.

أذهلتْه بقوّة حالة شابّة "شعرتْ بتيّار هواء، أفرغَها من كلّ ما بداخلها، وملأها بكلّ ما كان خارجها" ذات مرّة بينما كانت تسير بممرّ بيتها. شيء مشابه كان قد حَدَثَ له ذات ليلة حين كان بالخزانة، إذ تعرّض لنوبة اختناق طفيفة، عالجها بمساعدة شعور شبيه: شعور بأنه، رغم يقظته، ليس داخل الخزانة، بل ولا حتّى داخل العالم، بل أن الخزانة والعالم هما الموجودان داخله.

في هذا المنتدى نفسه، حكى رجل أنه ذات يوم، في أثناء ركوبه الأوتوبيس متوجّهًا للعمل، رنّ الموبايل في جيب معطفه الداخلي. حين هَمّ بإخراجه، صَمَتَ الجهازُ. ولأن الجرس واصل الرنين، أخرج المحفظة، حيث بدا له أن الصوت يأتي من هناك. وبالفعل، كان منبع الرنين صورةً لابنته الميتة، وكان فيها هاتف أرضي. كان ذلك هو الجهاز الذي يرنّ، وكان، بحسب المنطق، مستحيلاً الرّدّ على المكالمة. لمَنْ كانت المكالمة؟

كان يتساءل، للابنة الميتة؟ أم له؟ ومِن مَن؟ مَنْ كان المتّصل؟ وبداية من ذاك اليوم، بحسب ما حكى المشارك في المنتدى، بدأ هاتف الصورة يرنّ بانتظام، أحيانًا في منتصف الليل، مُغرِقًا أبا الفتاة الميتة بالعجز حين كان غارقًا في اليأس.

كان العامل المشترك بين المشتركين كلّهم في المنتديات أنهم بشر. الأشباح، لسبب ما، لم تكن تكتب لتحكي تجاربها في عالم الأحياء. لذلك، تأخّر كثيرًا في اتّخاذ قرار بالمشاركة، بصفته روحًا. في النهاية، دَخَلَ ذات صباح، ممتلئًا بالتردّد، لمنتدى استراح فيه، وكتب:

- أنا أحد الأشباح التي تتحدّثون عنها، وأعيش في بيت عائلة، لا تتمكّن منطقيًا من رؤيتي، رغم أنها تستفيد من حضوري. وعلى عكس أغلب الأرواح التي تتحدّثون عنها، تصرّفاتي مفيدة. فلا أنا أكرّس حياتي لعمل الضجيج، ولا أطفئ وأفتح الإضاءة، ولا أغيّر أماكن الأشياء. مصيري ليس إلا تسهيل حياة هؤلاء الأشخاص، بحيث إنهم، طول فترة وجودهم خارج البيت، أقوم بالمهامّ المنزلية، وبالصيانة العامّة له، فأنا خبير في أنواع الإصلاحات كلّها. كنتُ أتمنّى لو أعرف إن كان هنا أيّ شبح آخر في وَضْع شبيه لوَضْعي حتّى أتبادل معه الخبرات.

وبمَلْمَح فكاهي تلقائي قد مَنَحَهُ من قبل نجاحًا ساحقًا في لقاءاته مع سيرخيو أوكان، وقّع مداخلاته باسم "القائد الشبح"، وهو الاسم المستعار الذي حقّق جذبًا في أجواء الشبكة هذه. هكذا جاءت الردود سريعة دون انتظار، وفي عمومها، كانت متهكّمة. غير أن ردوده عليهم كان لها جاذبية كما اعتاد، فبدؤوا يأخذونه، بالتدريج، على محمل الجدّ، بادئًا بذلك مرحلة شهرة واقعية، لأنها كانت تحدث خارج رأسه، على عكس المرحلة التي استمتع بها مع سيرخيو أوكان.

كان روّاد الإنترنت يسألونه حول وَضْعه، وكان يجيبهم بصواب وحيطة. كان يؤكّد لنفسه أنه محض شبح ملتصق بقطعة أثاث بنفس طريقة أشباح أخرى، تلتصق ببيت أو بغرفة، وكانت أرضًا لتحرّكاتهم. لم يكشفْ نوع الأثاث حتّى لا يُعطيهم علامات، تُسهّل لهم تحديد مكانه. وللأسباب نفسها، لم يعطِهم تفاصيل كثيرة عن العائلة التي "انضمّ إليها".

- ستعذرونني- قال للمشاركين في المنتدى الذي استقرّ فيه في النهاية - إن لم أعطِكم أيّ بيانات، تسمح بتحديد مكان العائلة التي تستضيفني، إذ سيتسبّب ذلك في سُمعة غير مريحة لهم.

وسريعًا تجاوزتْ شعبية "القائد الشبح" حدودَ دوائر الإنترنت والمدمنين على المسائل الخارقة، لتستحيلَ خبرًا مُستهلَكًا، بدأ في الانتشار في برامج الراديو الصباحية التي كان دميان يستمع إليها بذهول متنامٍ، بينما يقوم بمهامّه المنزلية. ومع أن الكثير من المستمعين كانوا يتّصلون للسخرية أو قول النكات، إلا أن ثمّة برنامجًا متخصّصًا في المسائل الماورائية كان يعير اهتمامًا محترمًا.

وبالليل، في أثناء رقدته بجسد مفرود في خزانة الحائط، منتبهًا لأيّ صوت قادم من الخارج، كان يفكّر في أن سيرخيو أوكان، الذي لا يزال يظهر له متوسّلاً أن يُعيدَه إلى الوجود، لم يكن إلا درجة في سلّم صعوده إلى هذه الشهرة الواقعية التي ينبغي أن يديرها الآن بوسائل واقعية أيضًا. المُلفتُ أن هذه الوسائل كانت تتضاعف كلّما استحال بالفعل شبحًا حقيقيًا، إذ إنه في الحقيقة كان يتخلّى عن ماديّته مع الوقت، أو هكذا بدا له الأمر.

كان يعتمد، بالطبع، على جسده، ليتحرّك من مكان إلى مكان آخر

بالبيت، جسد لا يزال محتجبًا حتّى لا يراه أحد من أفراد العائلة، غير أن احتياجاته الجسدية في الوقت نفسه، كانت تتضاءل تدريجيًا. أصبح قليل الطعام، بل ويصوم عن الأكل عمليًا في بعض الأيّام، وغدا شبقًا لشرب الماء، ما فسّره بأنه التماهي مع شفافيّته، بقدرته على التّبخّر، واستعداده الخاص للتّحوّل من حال لحال.

ومن حالته الجديدة، البعيدة عن الحالة الأرضية، كان يستحضر أحيانًا وجوده الماضي، وبدا له مدهشًا أن بقي لسنوات طويلة مقيّدًا بحُرّيّة العالم الخارجي الوَهْمية. وبشكل متناقض، كان يشعر الآن، في الساعات الطويلة التي يقضيها داخل الخزانة، بأنه أكثر حُرّيّة. وفي هذا الشكل الجديد من الحُرّيّة، كانت أفكاره تسيل بشكل شبه لا إرادي، كأنها عصارة أخرى من مخلّفات الأورجازم. وكان العالم يكتسب صفات الكريستال، كلّ شيء كان شفّافًا بالنسبة له، كلّ شيء يأتي، مع ذلك، من عالم معتم، ظلّ فيه على الدوام مرتابًا في ذكائه.

من حين لآخر، كان يتذكّر أباه وديسيريه، أخته الصينية. كان من الممكن أن يتخيّلهما في الشقّة الراقية بشارع أرتورو سوريا، يشاهدان معًا لقاءاتِ إنياكي جابيلوندو على قناة Canal +، ويبحثان كذلك عن أفلام قديمة على هذا التردّد المدفوع، ويقرآن لمؤلّفين روس من القرن التاسع عشر. كان يفكّر في أمّه الميتة، المقتولة ربّما بالغيرة. كم جريمة منزلية من النوع نفسه تقع يوميًا، أسبوعيًا، شهريًا، في مدينة مثل مدريد!

وفي نوبة وجيزة وفوق واقعية، خطر بباله إعادة تشييد شُقق، أي بناية من الداخل، بحيث تكون شديدة الضيق، ويقطعها طولًا، ويغطّي سقفها طبقة من الزجاج أو البلاستك، تسمح بمراقبة سلوك الحيوانات. سلوك

البشر في المطبخ، في الحمّام، في الصالة. امرأة تُغيِّر الفوطة الصّحّيّة، رجل يقوم بتمرينات، وشابّ يمارس العادة السّرّيّة أمام المرآة ...

أما سلوك أبيه مع ديسيريه، ابنته المتبنّاة، هل هي مجرّد خيالاته هو؟

بالمناسبة، قليلاً ما يتذكّر، حتّى لا يكذب، الدورة الشهرية لـ ديسيريه. إمّا لأنها كانت متحفّظة جدًا في هذا الشأن، أو أنه لم يطّلع، لأنه، كما لا يطّلع على أشياء أخرى، كان شاردًا. لو كان أُتيح له الحديث مع أخته الصينية، كان سيسألها كيف كان أمر الحيض، وفي أيّ سنّ جاءتها الدورة، ليرى بذلك طريقة لمساعدة ماريا، مراهقة البيت التي كانت تنتظر البلوغ بلهفة. كيف يكون انتظار الدورة؟ سأل نفسه متخيّلاً شابّة واقفة، بساقَيْن متباعدَتَيْن قليلاً، وربّما بعينَيْن مغمضَتَيْن، تُنصتُ لحركة دمها داخل الأوردة صعودًا وهبوطًا مثل قطار يمرّ عبر نفق.

لكنْ، وماذا لو كان شيء قد حَدَثَ في اختفائه؟ وماذا لو أن أباه قد مات، مثلاً؟ إنه في عمر الموت. كيف كان سيحلّ مسألة الميراث؟ هل ثمّة شيوخ ينتظرون الموت بنفس لهفة وخوف فتيات، ينتظرنَ الدورة الشهرية؟

بإعجاز، كان قد حقّق إقصاء صورة أخته الصينية من خيالاته الجنسية الأخيرة، المتمركزة بالفعل في وجه لوثيا، رغم أن الحقيقة أيضًا أنه، وبتكرار، وفي لحظة القذف، كان وجه لوثيا يستحيل لوجه أخته الصينية لأعشار من الثانية.

هل يمكن أن يسأل أبوه وأخته عنه ذات مرّة، ليعرفا كيف حاله، ماذا يفعل؟ لماذا لا يردّ على المكالمات؟ هذا في حالة، وهي مستحيلة، إن تذكّراه. كان يروق له أن يتخيّلهما مهجورَيْن لمصيرَيْهما مثلما استسلم

هو للفوضى. إذ كان ذلك وجوده الحالي: منتج لفوضى، دَخَلَتْ حياته السابقة، وواجهها خطأً. لقد قرأ ذلك في أحد كُتُب الغيبيات، في فصل بعنوان "فوائد الفوضى، مزايا الانحلال". وكان هو الآن خارج القيود، خارج العالم، كان بالفعل في منطقة بالعالم الآخر، عثر بها في النهاية على الشكل المناسب للتواصل مع هذا العالم.

كان داخل الخزانة، في ليلة ممطرة ورعدية بعنف غير معتاد، حين انتبه أنه قد أخطأ عندما وقّع مشاركاته في منتدى الأشباح باسم "القائد الشبح". ألا تحمل فكرة "القائد" كإشارة لطبقة اجتماعية عليا نبرة متعالية؟ هل سبب الاسم الشعور بالفخر حين يتحدّثون عنه في منتديات الإنترنت والراديو، وبالطبع برامج التلفزيون القذرة التي لا يشاهدها؟ هل كان مكتوبًا عليه أن يجرّ خلفه هذه الحياة الرخيصة، هذا الوجود المستعمل الذي اكتشف فجأةً، وهو في عتمة مخبئه، أنه خزي؟

-٣-

كلّ يوم، كانت تظهر عشرات الرسائل لروّاد بالمنتدى، الذي اعتاد المشاركة فيه، يؤكّدون أنهم هم مستضيفو القائد الشبح.

- يعيش في كومودينو أبي - يقول أحدهم.

- شعرتُ بوجوده في غرفة القمامة بعمارتي - يؤكّد آخر.

وكان دميان يطلب من كلّ واحد منهم أن يقول أمارة، لا يمكن أن يعرفها أحد سواهما، فلم يصبْ أحد منهم، طبعًا، حتّى حَدَثَ ذات يوم أن ظَهَرَت العبارة التالية تحت توقيع "ممتنّة":

- عزيزي القائد الشبح، أعتقد أني أنا مستضيفتُكَ.

وردًّا على أسئلة دميان، وصفتْ "ممتنّة" بالتفصيل العشاءَ الذي أعدّه الشبح لها ولعائلتها في اليوم السابق.

بإثارة مفرطة، أدّت لارتجاف صدغَيْه، ترك القائد الشبح وممتنّة المنتدى العام، ليتحدّثا على الخاص، وهناك واصلا الحوار دون شهود.

سألها دميان ماذا يعرف عنه زوج لوثيا وابنتها، إذ كانا مَن يشعر بخطرهما عليه.

- لا يعرفان شيئًا تقريبًا - قالت المرأة -. حدّثتُهُما في البداية عن روح

خيّرة، أقامت في البيت منذ قدوم خزانة أجدادي، فأخذا الموضوع على محمل الهزل. بعدها، حينما تحقّقتُ من وجودكَ بالفعل، ولأني أردتُ ألا أقتسمَكَ معهم، بدأتُ أنا نفسي أسخر ممّا قلتُه. هم يعرفون أني مُغرَمة بالمسائل الماورائية، غير أنهما لا يحملونها محمل الجدّ.

- وإلى مَنْ يُرجعون تنفيذ المهامّ المنزلية؟

- إليّ أنا. حين يرون الأكل على المائدة والملابس نظيفة والأسِرَّة مرتّبة، لا يسألون. بالإضافة لذلك، أقضي وقتًا في مَحْوِ آثاركَ، هكذا لا تفعل أشياءَ كثيرة حتّى لا تُثير شبهتهم في وجودكَ. أحيانًا، حتّى ينسبوا لي كلّ ما فعلتَهُ أنتَ، أضطرّ للعمل مضاعفًا، كأني قمتُ به بالفعل.

- أليس من الأفضل أن يقبلوا بوجودي؟

- قلتُ لكَ إني لا أريد أن أقتسمَكَ مع أحد، مع أيّ أحد.

تلقّى دميان الصدمةَ الشعوريةَ في محتوى العبارة كأنها، أكثر من كونها عبارة مكتوبة على الكمبيوتر، قد همستْ بها المرأة في أذنه. ولأنه يعرف صوتها، لم يواجه أيّ صعوبة في استلهام رنينه. كانت الساعة الحادية عشرة صباحًا. حَسَبَ أن فيدي، الزوج، قد يكون في محلّ اللعب؛ وماريا، المراهقة، في المدرسة؛ ولوثيا في عملها. لم يكن في البيت إلا الوحيد الذي لا ينتمي لها: هو. فجأةً أدرك الانحراف المتمثّل في المشهد. أحسّ بنفسه كدخيل في غرفة الشابّة التي رتّب سريرها، ووَضَعَ سوتيانها في سلّة الملابس المتّسخة. كان هناك، بشكل لا يُصدّق، يقوم بدور الشبح، بينما الحياة في الخارج تواصل دورتها التي انسحب منها كَمَنْ نزل من الباص. وماذا لو انضمّ إلى الجماعة قبل أن تقعَ كارثة؟

في تلك اللحظة، كان بوسعه أن يقطعَ الحوار مع لوثيا، أن يُطفِئ الجهاز، أن يخرجَ من غرفة النوم، أن يعبرَ بالممرّ، أن يتوجَّه لباب البيت، ويخرجَ للعالم الخارجي، للشارع، كَمَنْ بُعِث من الموت. لابد أن عالمه بالخارج لا يزال على حالته (إن لم يكن أبوه قد مات). لابد أنه تلقّى في حسابه المصرفي التعويضَ عن الطَّرْد من العمل، ولابد قد بدأ في تلقّي بدل البطالة، وسدّد من الحساب نفسه فواتير الكهرباء والغاز وقسط التلفزيون والسّيّارة.

تخيّل أن السّيّارة المركونة بالقرب من شقّته غدتْ مردومة بالتراب. لم يكنْ يستخدمها كثيرًا، ومنذ الطَّرْد لم يستخدْمها، غير أنه احتفظ بها، ليحتفظَ بها فحسب. ومن آنٍ لآخر، كان يبدل مكانها حتّى لا تبقى مهجورة؛ وأحيانًا كان يقودُها في أيّ طريق، ليشحنَ بطّاريتها.

بعد رؤية السّيّارة، خطرتْ بباله شقّته الخالية التي انتهى من قسطها المصرفي العام الماضي. كانت عبارة عن بيت من ثلاث قِطَع (صالة بمطبخ متّصل بها، غرفة نوم وحمّام)، قريبة جدًا من محطّة مترو أوسيرا، وهو حيّ يتمركز فيه جزء كبير من الهجرة الصينية المقيمة بمدريد. كان قد اشتراها بسعر جيّد، لأنها قديمة، وتحتاج إلى ترميمات، قام بها بنفسه. ونهاية أسبوع وراء نهاية أسبوع، كان يرفع الأرضية، ويضع الكارفانات، يُغيِّر الأنابيب، ويدهن الحيطان، أو يكسوها بورق حائط، يدهن الأبواب، ويُجدّد المفاتيح الكهربائية، كذلك يُجدّد الحمّام والمطبخ ... حتّى حين انتهى من التحسينات، ظلّ يضيف تفاصيل أخرى، تضيف لقيمتها. في مناسبة ما، عرضها للبيع، ليعرف سعرَها، لا لأن لديه نيّة للتّخلّص منها، حينها عرضوا عليه ثلاثة أضعاف ما دفعه.

رأى تلك الحياة كلّها التي يمكنه استعادتها الآن، غير أنها بدتْ له غريبة عنه. كان يمكن أن تصيرَ ملْكه دون صعوبات، إذ لديه الأوراق اللازمة، لكنه لم يرَ نفسه هناك رغم لحظة الرعب الذي شَعَرَ بها هنا للتّوّ.

- ألا تزال هناك؟- كتبت المرأة.

- نعم - أجابها.

- أنا في العمل- أضافت -. هذا الصباح، بعد أن وصّلتُ ابنتي للمدرسة، استمعتُ في راديو السّيّارة لقصّة القائد الشبح، وانتبهتُ في الحال أنه أنتَ. لا يمكن أن يكون آخر. لماذا عرّفتَ نفسكَ بهذا الشكل؟

- لا أعرف - كتب دميان -، لأني ضجرٌ.

- ولماذا أنتَ الروح الوحيدة التي تكشف نفسها في الشبكة؟

- لأني رائد - ضَغَطَ على الكيبوورد باشتباه أنه يقول واحدة من حماقاته الجديرة ببرنامج أوكان، وأن المرأة ستتجاوزُها.

- قل لي شيئًا، هل كان وصول خزانة أجدادي وظهورك محض مصادفة؟

- ...

- هل كان محض مصادفة؟

- أفضّل ألا أكشفَ نفسي.

- من أيّ كمبيوتر تكتب؟

- لا أحتاج لأيّ كمبيوتر لأكتبَ. ويجب أن أنصرفَ الآن.

- هل يمكن أن نتواصلَ مرّة أخرى عبر هذه الوسيلة؟

- نعم، غدًا في هذه الساعة سأدخلُ المنتدى.

- يبقى شيء واحد.

- ...؟

- لا تُرتِّبْ سرير ابنتي، سأضطرّ لنَكْشِهِ بسرعة، والركض قبل أن تدخل غرفتها، فمنذ سنوات، أحاول أن أعلِّمَها الاهتمام بشؤونها، وأنت تُعوِّدها على عادات سيّئة.

- اتّفقنا.

أنهى دميان المحادثةَ، وأخذ شهيقًا. لو استمرّ دقيقَتَيْن أخرَيَيْن، لانهار. كان يتعرّق ويلهث كأنه بذل جهدًا جسديًا مفرطًا. وبعد أن استردّ أنفاسه، نهض من الكرسي بحماس من في فترة نقاهة متحيّرة، وتوجّه لغرفة النوم الرئيسة، ليتعرّى ويندسّ في السرير الكبير، محتلًا مكان المرأة تحديدًا. كانت المُلاء باردات، لكنها تحتفظ بالرائحة المميّزة للكريمات التي تستخدمها لوثيا ليلًا، وتحفظ عُلَبَهَا مرتّبة بخزانة صغيرة بالحمّام. وبعينَيْن مغمضَتَيْن، حاول استرجاع الحوار القصير معها.

ثمّ نهض. وسار عاريًا ونحيلًا حتّى غرفة الضيوف، حيث تحفظ لوثيا ملابسها الداخلية في خزانتها. حتّى تلك اللحظة كان يحترم هذه المسافات، نادرًا ما كان يلمس لباسها الدّاخليّ وسوتياناتها، فقط اللَّمْس الضروري في الغسيل والمَكوي، محافظًا على حرمة هذه القِطَع بمسافة عاطفية، تُشبهُ المسافة نفسها التي يحافظ عليها مع العالم. هذه المسافة التي تهدّمت، لأن شيئًا ما قد تهدّم أيضًا بداخله.

- وماذا فعلتَ؟- سمع سؤال سيرخيو أوكان، الذي استغلّ لحظات الارتباك هذه، ليقتحمَ حياته.

- عدتُ لسرير غرفة النوم الرئيسة بطَقْم داخليّ مُستعمَل- أجاب.

- وما لونه؟

- لونه... تبغ، أو لون الجلد، على ما أظنّ.

- وأخذتَهُ، لتَسْتَمْنِي عليه؟- سأل أوكان.

خَرَجَ دميان من حُلم يقظته جرّاء ضحكات الجمهور الحاضر في البلاتوه، والذي أشعره بأنه قَذِرٌ. كيف استطاع أن يحضر خلال فترة طويلة لهذا البرنامج شديد القذارة؟ سأل نفسَهُ وهو مُندسّ بين المُلاء. ورغم أن فكرته كانت الاستمناء فعلاً، إلا أنه رَفَضَ ذلك، لكنه واصل معانقًا قِطَع المرأة الحميمة، واستمرّ، خارج البلاتوه، في الحوار التالي مع أوكان.

- انْسَني - حدَّثَهُ بعدوانية -، حواراتي معكَ ليست إلا حواراتٍ مُتخيَّلةً، وأنتَ لستَ إلا شخصًا مُتخيَّلًا.

- وهل تعتقد أنكَ أكثرُ واقعية الآن ممّا كنتَهُ حين كنتَ تأتي لبرنامجي؟

- نعم- أجاب.

- هل أنتَ شبح واقعي؟

- بالضبط، أنا كذلك: شبح واقعي.

- لكن الأشباح الواقعيّيْن لا وجود لهم.

- أنتَ مَنْ لا وجودَ لكَ.

- ولماذا تحَدِّثُني، إذنْ؟

- لأنها عادة. انصرفْ.

- تعال إلى برنامجي يومًا في الأسبوع، على الأقلّ- ألحّ أوكان بنبرة، يكسوها التّوسّل.

- لا، ليس لهذا الجمهور، ليس لهذا الحضور الرخيص، لقد تغيّرتُ، وأنتَ لا.

كان الحوار مع أوكان، بضمّه للمشاعر السابقة، يستنزفه حتّى وقع نائمًا في سرير، ليس سريره، فوق أثر جسد امرأة ليست صينية، محاطًا بكَمٍّ من الضجيج والصمت، تولد من خلاله هوية جديدة.

-٤-

- هل تأكل؟- سألته المرأة في اليوم التالي عندما التقيا بالمنطقة الخاصّة في المنتدى.

هل كان السؤال فخًّا؟ هو كان يأكل، مع الوقت تتضاءل وجبته، لكنه يأكل، ولوثيا، لو كانت قوية الملاحظة، فلابد أنها لاحظتْ. لكنْ، هل تأكل الأشباح؟

- هل تعرفين ما أكثر ما يشتاق إليه الشبح؟- أجاب دميان بعد لحظات من الضيق، متذكّرًا واحدة من قراءاته السّرّيّة.

- الجسد - قالت المرأة.

- الجسد، نعم. إذ إن الأثير مليء بأرواح تبحث يائسة عن أجساد، لتتسلّل إليها. لذلك، لأن لدينا نوستالجيا مخيفة للجسد، نتصنّع الأكل والاستحمام وحتّى قصّ أظافير اليد والقَدَم. لا يمكننا أن نُخلّف وراءنا بقايا الأظافير التي تنقصنا، لكنْ، نعم يمكننا أن نخفيَ الطعام الذي نتصنّع أننا نأكله.

- لقد لاحظتُ ذلك!- كُتِبَتْ بعلامة تعجّب، سمعها دميان أكثر من أن يكون قرأها. في الواقع، رأى كلّ كلمة تخرج من فم السّيّدة، شاهد وجهها الذي دَرَسَ أدقّ تفاصيله عبر صورها.

كانت حقيقة، على الأقلّ، تؤكّدها الكُتُب ومقالات الإنترنت: غياب الجسد يثير جنون الأشباح مثل نقص الهيروين بالنسبة للمدمن. الجسد يخلق تبعية أقوى ممّا يخلقها أيّ مخدّر. ودميان لوبو، في المقابل، كان يخرج من جسده دون أن يشتاقَ للعودة إليه.

عبارة "لقد لاحظتُ ذلك" التّعجّبية عاد صداها، كأن المرأة همستْ بها في أذنه بنبرة ساحرة. ثمّ أضافت لوثيا بعد لحظات صمت:

- أتعرف؟ في البداية، حين بدأتُ ألاحظُ وجودكَ، خفتُ أن أكونَ قد جُننتُ. كنتُ أعتقد أن جزءًا منّي يُرتِّبُ الأسِرَّة، ويغسلُ الأواني، ويُشغِّلُ الغسّالة فيما يعتقد الجزء الآخر في وجود شبح. والحقيقة أنكَ لا يمكنُ أن تتخيّلَ ما أصابني به من هَوَس اكتشاف الخزانة في السوق.

- لماذا؟ ماذا حَدَثَ في هذه الخزانة؟

وما إن بدأت المرأة في الردّ حتّى استغرب دميان حضور سيرخيو أوكان، إذ لم يعثرْ على بديل يحكي من خلاله، وكانت ثمّة لحظات، يحتاجُهُ فيها بيأس. كانت هذه إحداها. ومثل مَنْ يتّخذ قرارات وهو على حافة الهاوية، على وشك أن ينتزعَ ورقة التوت التي تغطّيه، تخيّل أنه في لقاء مع إنياكي جابيلوندو(*) داخل بلاتوه أكثر رصانة، وبجمهور أقلّ عددًا، لكنه أكثر انتقائية من جمهور أوكان.

- ماذا حَكَت المرأة حول الخزانة؟- سأل الصُّحُفي المعروف دميان.

- حَكَت لي أنه داخل هذه الخزانة، الذي يرجعُ لبيت جدَّيْها، وهما

---

*) إعلاميّ إسبانيّ شهير، وله العديد من البرامج ذائعة الصيت، مثل cuatro x cuatro, la voz iñaki (م)

مزارعان ورعاة مواشٍ بقرية بـ سانتاندر، كانت تلعب وهي صغيرة مع أخيها، ويسمّى خورخي. وكان أبواها قد أرسلَهُما إلى جدَّيْهما عقب تعرُّض أمّهما لحمّى مجهولة المصدر، أقعدتْها لخمس سنوات. كانا توأمَيْن، مع أنهما لا يتشابهان، حيث كانا من بويضَتَيْن مختلفَتَيْن. وكان أخوها، بالفعل، مولودًا بعاهة، إذ كانت تنقصه سبّابة اليد اليمنى. كان جَدّ لوثيا يقول لها مازحًا إنها مَنْ أكلت هذا الإصبع حين كانا في بطن الأمّ. وداخل الخزانة كانا يتعرّيان ويلعبان كأنهما داخل رحم الأمّ. في هذه اللعبة، كان هو مَنْ يأكل إصبعًا منها. وأحيانًا كانا يتبادلان الأدوار.

- وماذا بعد؟- سأل جابيلوندو، مع الوصول لهذه النقطة، عندما توقّف الضيف بوجه متأمّل.

- آه - قال دميان عائدًا إلى نفسه -، مات الأخ من التيتانوس وهو في السابعة، وكان قد عمل خدشًا في الخزانة، لم ينتبهْ له الجدّان.

- ثمّ؟- ألحّ جابيلوندو.

- ظلّتْ هي تلعب في الخزانة، داخلها وخارجها. كانت تُغلِقُ أبوابها، وتفتحُها دون توقّف مُتمنّيَة أن تعثرَ على أخيها خلف فساتين جدّتها ومعاطف جدّها.

- الخزائن القديمة والطفولة - أشار الصُّحُفي، الذي لم يعدْ إنياكي جابيلوندو، بل سيرخيو أوكان.

عاد في لحظات إلى أوكان كما يحدث في الخيالات الجنسية، التي كان يحاول تجديدها، إذ يعود بلا كَلَل لنموذج حياته الصيني، الغريب والمبتذَل حدّ النفاد. لكن لوثيا كانت تكتب حول علاقتها بالخزانة بسرعة،

لم يستطعْ دميان حيالها استحضار جابيلوندو من جديد، فوافق، خانعًا، على أن يحاورَه أوكان.

- الخزائن القديمة والطفولة - كرّر الصُّحُفي بعينَيْه الصفراوَيْن، مراقبًا حيرة دميان لوبو.

- نعم - أجاب -. لكن العلاقة مع الخزانة تسبّبت في حَدَثَ آخر تراجيدي.

- نحن على أحرّ من الجمر- أضاف أوكان فاتحًا ذراعَيْه، ليحيطَ بجمهور البلاتوه الذي يحبس أنفاسَهُ في انتظار التّجلّيات الجديدة.

- الحكاية أن جدَّيْ لوثيا كانا مشغولَيْن جدًّا بلعب الطفلة بأبواب الخزانة خشية أن تُغلقها على أصابعها - واصل دميان -. "انتبهي لأصابعكِ!" كانت أكثر العبارات التي تسمعها، بينما كانت في غرفة نوم العجوزَيْن. كانت العبارة تأتي بثبات من المطبخ، من غرفة السفرة، من الممرّ، وأحيانًا من داخل الحجرة نفسها. انتبهي لأصابعكِ! هذا الوسواس بالأصابع تسلّل لرأس الطفلة، حيث إنها ذات يوم، بينما يضطجع العجوزان أمام التلفزيون، دَخَلَتْ غرفةَ الزوجية، ووَقَفَتْ أمام ضلفة الخزانة الرئيسة، ونظَرَتْ لعينَي الطفلة في الجانب المواجه لها، ثمّ أدخَلَتْ سبّابتها اليمنى في ثغرة المفصل، وأغلقتْه بتصميم غريب. تقول إنها سمعتْ صرير إصبع تحت ضغط، وإنه لم يؤلمها، فقط لاحظتْ ما تشعر به عند جزّ عضو تحت المخدّر. ثمّ جاءها الألم فجأةً، بتأخير غير مُبرّر. حينئذ صرختْ لوثيا، وأُغمي عليها، وحين أفاقتْ كانت يدها ملفوفة، وبعد قليل، وحتّى لا ترتعب عندما يأتون للتغيير على الجرح،

كشفوا لها أنها فَقَدَتْ إصبع السبّابة. "هذا"، قالت لها الجدّة مشيرة إلى إصبعها.

كان الجمهور وكذلك أوكان يكتمون أنفاسهم. فكّر دميان أن المشاهدة لابد أنها ترتفع مثل الرغوة. لكن لوثيا كانت تواصل حَكْيَ قصّتها دون توقّف، ولم يتح الوقت للاستراحات المسرحية التي كان أوكان يديرها باقتدار. لذلك، واصل دميان حَكْيَ ما كان يراه على شاشة الكمبيوتر:

- تقول لوثيا إن الجدّة قرّرت أن تتخلّى عن الخزانة، مثل مَنْ يضحّي بكلب قد عضّ أحد أفراد العائلة، هكذا تمّ نقل الأثاث لغرفة خارجية بالبيت، كانت تُستخدَم لتربية الدواجن والأرانب. وحتّى لا يعود للعضّ، خلّعوا أبوابه، وغطّوها بورق تغليف قبل أن يستودعوها في ركن بالبيت، أما جسد الخزانة، فغطّوه بورق كرتون، لم يستمرّ طويلاً، إذ لم تتأخّر الطيور في الاستيلاء على الأثاث، وحوّلوه إلى مكان لوَضْع البيض وإخراج الكتاكيت، كما استغلّوه لقضاء ليالي الشتاء الأشدّ برودة.

- ثمّ؟- ألحّ أوكان أمام صمت لوبو المفاجئ.

- تقول لوثيا إنها كانت تجلسُ أمام الخزانة، وبدلاً من أن ترى نفسها، إذ لم تعدْ هناك مرآة، كانت ترى فراغًا هائلاً، كأن الأثاثَ قد ابتلعَ انعكاسها. ولم يكن الشيء الوحيد الذي ابتلعه. كانت الأشياء تختفي بداخله: بيضُ الدجاجات، مثلاً، بعضُ الأرانب، بل وحتّى دجاجة، كانت لوثيا قد سمَّتْها باسم، وكانت تطاردُها في كلّ مكان.

- وهل كلّ ما كان يختفي كان يذهب إلى المائدة؟- سأل أوكان.

- أظنّ، أنه نعم، أنهم كانوا يأكلونه. تقول لوثيا إن جدَّها، ليُداري

على هذه الغيابات، كان يلعب بدَسِّ أشياء في الخزانة، تختفي في اليوم التالي.

- على سبيل المثال؟- سأل أوكان.

- دمية من القماش قديمة جدًا، كان يسمّيها خورخي، وكانت الطفلة تلعب بها، ولتُثير انشغال جدَّيْها كانت تعاملها كأنها أخوها الميت. وافقتْ على هجرها حين ابتلعَتْهَا الخزانة. لكن الجدّ كان يقول لها إن ذلك كلّه الذي يختفي في أعماق الخزانة سيعود ذات يوم من حيث ارتحل. وكبرت الطفلة بهذه الفكرة الفانتازية، من هنا جاءت ارتجافتها حين صادفت الخزانة في السوق.

بعد سَرْدها سريعًا لقصّة الخزانة، كتبتْ لوثيا أنها مضطرّة لإنهاء المحادثة، بسبب العمل. وقبل أن تُودِّعَه، أبلغت القائد الشبح أنها ستسافر في اليوم التالي خارج مدريد، لقرية بـ سانتاندر، حيث تعيش أمّها التي سَقَطَتْ مريضة، وأنها ستبقى هناك لعدّة أيّام. ستصحب معها ماريا، ابنتها، إذ تخاف أن تتركَهَا مع أبيها، لأنه يقضي ساعات طويلة بالمحلّ، ولا يستطيعُ الاهتمام بها كما ينبغي. أضافت أن ماريا تواجه مشاكل تغذية، ومن الضروري أن تعتني بها عن قرب. وطلبت من القائد الشبح ألا يقوم بأيّ مهمّة منزلية في أثناء وجودها بالخارج، حتّى لا يُثيرَ شبهات زوجها.

- ألا يمكن أن نتواصل؟- سأل دميان.

- لا - أجابت لوثيا -، بيت أمّي ليس به إنترنت، والقرية بالكاد بها تغطية هاتفية.

- لقد بدأتْ بينكما علاقة، تقترب من الزنا - أشار سيرخيو أوكان، ليُبهِجَ جمهورَهُ.

الجزء الثالث

-١-

في اليوم التالي، رغم أنهم استيقظوا جميعًا في الساعة المعتادة، شَعَرَ دميان لوبو من داخل كهفه بالاضطرابات السابقة للسَّفَر. ظلّ مفتوحًا باب الخزانة الخشبي الرئيس، حيث تُدخِلُ لوثيا ملابسَها، بينما كانت تُعدّ حقيبتها، هكذا لم تجدْ ضوضاء العالم الخارجي أيّ مقاومة، لتصلَ إلى دميان، باستثناء حائط خشب رقائقي، ألصق فيه أذنَيْه الاثنَتَيْن. بحسب ما حكى لإنياكي جابيلوندو، الذي أجبرَ دميان على العودة، كان بوسعه الاستماع لصوت رهيف مثل الشمّاعات التي تسحبها يد لوثيا.

- ضوضاء طفيفة جدًا، أظنّ - أشار الصُّحُفي.

- تخيّل: الصخب الناتج عن احتكاك عُلّيقة الشمّاعة بالحامل المعدني.

- قد أقول إنكَ اكتسبتَ مهارات الأعمى.

- وما العمل؟! تحسّرتُ لأني لم أثقبْ في الخشب الرقائقي ثقبًا صغيرًا، لأستغلّ فرصة مثل هذه لأرى لوثيا. فما أزال لا أعرف وجهها إلا من الصور.

كان إنياكي جابيلوندو يحاورُه على canal +، قناة أبيه المفضّلة. ولأنها قناة باشتراك، لم يكنْ لها جمهور واسع مثل برنامج أوكان، لكن جمهوره كان أكثر انتقائية. كان البلاتوه، الرصين والخالي من المَدعوِّين، يتكوّن من منضدة وكرسيَّيْن، وبخلفية غامقة.

- هل تعرف سيرخيو أوكان؟ - سأل دميان جابيلوندو.

- سيرخيو أوكان؟ الحقيقة، لا. هل يجب أن أعرفَهُ؟

- لا أعرف، ربّما لا، الأمر سيّان. كان مُقدِّمَ برنامج تلفزيوني، قام بحوارات معي حتّى الآن، لكنْ، طردتُهُ، لأنه مُبتذَلٌ. أنا داخل في مرحلة من حياتي، أُفضِّل فيها (البرستيج) على الجماهيرية.

- صحيح - وافق جابيلوندو بشكل هروبي.

- كيف يبدو لكَ التلفزيون الزبالة؟- سأل دميان الآن.

- لكلٍّ مكان جمهوره.

- لكنْ، كيف ترى التلفزيون الزبالة؟

- ما أراه أن مَنْ يسأل هنا هو أنا - أنهى الصُّحُفي فارضًا سلطته.

- لم تكن نيّتي مضايقتكَ.

- لم تضايقْني، لكن الحوارات لها إيقاعُها، وكنّا قد بدأنا في الاستطراد. طيّب، كنّا توقّفنا حين واصلتَ حياتكَ في تجويف بخزانة الحائط، منتبهًا لأيّ صخب عائلي، بسبب استعدادات لوثيا، سيّدة البيت، وبنتها للسَّفَر ... ماذا قلتَ لي عن اسم الفتاة؟

- ماريا.

- ماريا. هل هناك أحداث هامّة، بالإضافة إلى الاستعدادات؟

- هناك ما لاحظتُه أنا في فيدي، الزوج، شيء لم تلحظْهُ الزوجة ولا البنت.

- ما هو؟

- أنه يسعدُ بالبقاء بمفرده. المسألة ليست أنه يُظهِرُ ذلك. بالعكس، أداءاته كلّها، التي تبلغ المخبأ، على الأقلّ، كانت تشير إلى العكس. كان يقول لزوجته إنه سيفتقدُها هي والابنة، وإنه لولا المحلّ، لكان رافقهما أيضًا، فلديه رغبة لفعْل ذلك، لكن ذلك كلّه كان بنبرة شكوى، رنينها مُزيَّف. كان أكذوبة، ومن هنا أحسستُ أن لديّ سَمْعًا مميّزًا، لألتقطَ المخبّأ.

- وماذا كانت تقول هي؟

- كانت تردّ بعبارات مدروسة إلى حدّ ما، عبارات لم يكنْ عاديًا أن تتوجّه بها لزوجها. كأنها تفرض رقابة ذاتية.

- وإلى ما يرجع ذلك؟

- إلى أنها كانت واعية باستماع القائد الشبح لكلّ ما يُقال. كان لديها أدلّة على أن وجودي في البيت حقيقة، وكانت تتعامل برسمية، كأنها تنقل لي فكرة عن أن حساسيتها لا تتآلف مع حساسية زوجها. فكّرتُ أنها ربّما تخشى من حكمي عليها بخشونة طباعها قليلاً مع الرجل الذي تزوّجتْه.

- وهل تقصد من هذا أنها تُفضّلُكَ عليه؟

- حسن، لا أعرف، ربّما، شيءٌ هكذا.

حين خَرَجَت العائلة من البيت، خَرَجَ دميان من مخبئه، فطر، دَخَلَ الحمّام، وتجوّل قلقًا بين الغرف. لم يكنْ لديه ما يفعله، إذ إن لوثيا قد طلبتْ منه ألا يقوم بالمهامّ المنزلية في غيابها. وحتّى عودتها، كان مكتوبًا

عليه تجميد جبري، فتح أمامه طريقًا حُرًا ليمتلئ رأسه بتنبؤات. لم يكن جابيلوندو يشبع شغفه بالمجد. فبعد أن اعتاد على جمهور عريض، ها هو الآن يظهر في لقاءات بقناة صغيرة، لا تمنح له إلا التّذمّر العميق.

لماذا كان عاجزًا عن إقامة حوارات داخلية، يُفترض أن بقية الأشخاص يقيمونها؟ لماذا كان يحتاج منذ الأزل لوسيط، يتواصل من خلاله مع نفسه؟ في تلك اللحظة، ودون حاجة لاستدعائه، ظَهَرَ جابيلوندو، ليسأله إن كانت عادته القديمة بالتّحدّث مع نفسه عبر آخر تمُثِّل شكلاً من أشكال محو الشخصية.

تأمّل دميان لعدّة ثوانٍ.

- هل قلتَ محو الشخصية؟

- نعم، يبدو لي أن ...

- المسألة أن هذه الكلمة لا يمكن أن تخطرَ ببالي. وإن كان غير ممكن أن تخطرَ ببالي، فهذا يعني أنكَ جابيلوندو الواقعي الذي استطاع التّسلّل إلى رأسي.

- بالطبع، أنا جابيلوندو الواقعي، ماذا تظنّ. وأنتَ مَن استدعيتَني.

- نعم، لأن أبي يقول إنكَ ضمان للجدّيّة، وإنكَ تتناول الموضوعات كلّها بصرامة، لا يمكن العثور عليها في مكان آخر.

- أيًّا كان السبب، لكنكَ مَن استدعيتَني.

- وهل تتسلَّل لرؤوس أخرى؟

- في عملي السابق في الإذاعة، كنتُ أتسلَّل أكثر، لكنهم لا يزالون أكثر من أن أنتبه إليهم.

كان دميان لوبو في مطبخ البيت في تلك اللحظة، يدور حول المائدة، ثمّ قَعَدَ مُنهَكًا على أحد الكراسي.

- ذلك كلّه كان بسيطًا جدًّا لمّا بدأ- قال للصُّحُفي.

- ومتى بدأ؟

- لم يبدأ، دائمًا ما كان موجودًا، منذ صارت لي ذاكرة. أتذكّر نفسي في ذهابي وإيابي من المدرسة، وأنا أحكي لشخص مُتخيَّل ما حلمتُ به في تلك الليلة، أو ما حَدَثَ لي في الفصل. أحيانًا كنتُ أختار لهذه الاعترافات صورة شخص واقعي، لكني، في الغالب، كنتُ أختار لا أحد.

- هل هو نوع من صديق غير مَرئي؟- سأل جابيلوندو.

- شيءٌ هكذا، لكنه صديق غير مَرئي وسلبي أيضًا، كيف أصفُ ذلك، صديق مجرّد مُتلقٍّ صرف. هل يسجّلون الآن؟

- أعتقد نعم، أنا دائمًا أسجّل.

- طيّب، لا يهمّ. بعدها، حين نضجتُ، رحتُ أشيد شخصية بالتدريج.

- المسمّاة سيرخيو أوكان؟

- سيرخيو أوكان، نعم. المشكلة أنه ما إن صار مشيدًا بالكامل حتّى بدأ في اتّخاذ مبادرات من تلقاء نفسه. كان يفعل ويقول أشياء، لم تخطرْ من قبل ببالي.

- على سبيل المثال؟

- ذات مرّة، حثّني برهافة على انتقاد الرأسمالية في برنامجه، وكان البلاتوه فائضًا والجمهور مكتظًا. الرأسمالية بلا روح، قال. لكني غير مُسيّس، مثل لاعبي كرة القَدَم.

- وكيف خَرَجْتَ من المأزق؟

- بعبارة مُلغزة، كنت قد سمعتُها من كريستيانو رونالدو.

- نعم.

- منذ ذلك الحين، بات النقاش مع أوكان منهكًا.

- مثل النقاش مع الأصوات الداخلية؟

- ماذا تقصد؟

- ذات يوم أجريتُ مقابلة في الراديو مع رجل شيزوفريني وقال الشيء نفسه: إن نصف ساعة من النقاش مع الأصوات كانت تتركُهُ مُنهَكًا، لأنها كانت تأمرُه بأن يفعلَ أشياء ضدّ مبادئه.

- مَنْ تحدّث هنا عن الشيزوفرينيا؟- تدخّل دميان بضيق واضح.

- كنتُ أحكي لكَ عن تجربة إذاعية.

- احذرْ، إذنْ، منّي، لأنكَ مهما كنتَ جابيلوندو، يمكنني أن أطردَكَ من حياتي، كما طردتُ أوكان.

- لا أحتملُ صلافةَ أحد- قال جابيلوندو مختفيًا من رأسه.

توجّه دميان لوبو للكمبيوتر، وبَحَثَ في غوغول عن مصطلح "مَحو الشخصية". كان يعني، بحسب ويكيبيديا، أن يشعر الإنسان بغربة اتّجاه ذاته. كأنهم فَصَلُوه عن حياته، أو عن جسده. ينتجُ ذلك عن قلّة النوم أو تعاطي المخدّرات أو حالات اللهفة الطويلة. ويُسمّى أيضًا بـ الاضطراب الفصامي، وتحت تأثيره يَنتجُ، أحيانًا، شعورٌ بغربة العالم.

لم يجدْ دميان في نفسه هذه الأعراض، وبالتالي خَرَجَ من ويكيبيديا، ليتجوّل في منتديات متخصّصة في الأشباح. كانت شعبية "القائد الشبح" في تزايد، لا يمكن إيقافه، وكان استثناء وجود منتدى لا يتحدّث عنه. لقد استحال نجمًا، يتوجّه له روّاد الإنترنت لطَرْح أسئلة من كلّ نوع. فيما كان يُقطّر مداخلاته، محاولًا أن تكون ذات نبرة غامضة، كما يتوقّع الناس من نبرة الروح. هكذا، ردًّا على سؤال إن كان من مكانه في الموت يستصغر هموم الحياة، أجاب:

- نجاح برج إيفل مدهش.

أثارت العبارة في الحال سلسلةً من التأويلات، قرأها القائد الشبح من كمبيوتر غرفة ماريا. كان يروق له هذا النوع من الشهرة، حيث يكون الشهير غائبًا. وهي شهرة تختلف عن شهرة البلاتوهات التلفزيونية بالقنوات العمومية، حيث يستعرض الواحد نفسه، مثل الأبطال القديمة، أمام جمهور يدين أو يعفو بالتناوب، بناء على مشاعر سريعة ومؤقّتة.

كان يستعدّ ليُعلّق على هذا المَلْمَح لـ إنياكي جابيلوندو، غير أنه لم يعثرْ على الطريق الذهنيّ، ليتسلَّلَ إلى بلاتوهه. كان يبدو أن الوَضْع قد تبدَّل: لم يكن هو مَنْ يذهب للبرنامج، بل كان البرنامج مَنْ يأتي إليه. ظلّ

منتبهًا للحظات، مستدعيًا الصُّحُفي، لكنه تأخّر في الظهور، وحين ظَهَرَ، فعل ذلك بمبادرة خاصّة منه، لا لأنه قد استدعاه. فكّر أن ثمّة شيئًا غريبًا يحدث.

- ما الغريب؟- سأل جابيلوندو الذي قرأ أفكاره.

- لا شيء، كنتُ أشاهدُ كيف تزداد شهرتي على الإنترنت.

- وخارج الإنترنت أيضًا. يبدو أنكَ قليلاً ما تشاهدُ التلفزيون، أو تسمعُ الراديو، إنهم لا يكفّون عن الحديث عن "القائد الشبح". بالمناسبة، ما معنى أن نجاح برج إيفل مدهش؟

- خطرتْ ببالي فجأةً.

- هل قالها صوتٌ من رأسكَ؟

- لا، لا، أقول لكَ إنها جاءتْني فجأةً، بالصدفة. أنا لا أسمع أصواتًا.

- طيّب، تسمع صوتي، نعم.

-٢-

ظلّ القائد الشبح منتبهًا طوال اليوم لعودة فيدي، زوج لوثيا. كان يخشى من أن يعدّل فيدي روتينه حين يبقى وحيدًا، ما يضطرّه هو لتغيير عاداته. لكنه سمع دخول السّيّارة المرأب في الساعة المعتادة، فهرول، ليشغلَ مخبأه، مُصغيًا للحركات الخارجية. وَصَلَ فيدي بصحبة سيّدة، لها صوت حادّ، وتضحك كثيرًا. وبعد أن تجوّل معها في البيت، كأنه يُطلِعُها عليه، وَصَلاَ إلى غرفة النوم، وحاول الرجل، كما استنبط ممّا سمعه، أن يُعرِّي في الحال المرأة التي ناداها بـ باولا.

- لا تكنْ متسرّعًا- قالت له هذه الباولا ضاحكة.

- ولماذا؟- سأل فيدي.

- دعني أعتاد الجوّ، إنها المرّة الأولى التي أدخلُ بيتكَ.

- ألا يعجبُكِ أكثرَ من المحلّ، حيث نضطرّ للممارسة واقفَيْن بين صناديق اللعب؟

- لكنْ، على هذا السرير تنام مع زوجتكَ، ماذا تريد أن أقولَ لكَ؟ هذا وَضْعٌ غيرُ مريح لي.

- هذا مكانٌ مشتركٌ. ما الفرق بين أن تنامَ زوجتي أو تكفَّ عن النوم هنا؟

- لِتَفَهُّم ذلك تحتاجُ إلى قليل من الحساسية.

- عندي حساسيتي، حساسية بنيتُها بنفسي. لا تهمّني الحساسية التقليدية، إنها شيءٌ رخيصٌ مائة في المائة، حساسية المتأخّرين عقليًا.

- هل تصفني بالمتأخّرة عقليًا، يا فيدِريكو؟

- وأنتِ، هل تناديني بـ فيدِريكو؟

- لأني لا أريدُ أن أناديكَ بـ فيدي، كما تناديكَ زوجتُكَ وأمُّكَ وبقيةُ نساء العالم. أنا في ذلك امرأةٌ تقليديةٌ أيضًا، يا حبيبي. أحبُّ أن أكلِّمَكَ بلُغة، لم تستخدِمْها من قبلُ امرأةٌ أخرى.

- خلا بلا شلا فلا.

- خلا شو فلا فو.

وينفجران في الضحك.

- مَنْ منّا يستطيع تحمُّل التّكلّم بهذه الطريقة؟- قالت.

- أنتِ؟- قال.

- لماذا؟

- لأن ما يهمّكِ هو صوتُ الكلمات، وليس معناها.

- يشغلُني معنى السلوك. لا أحبّ مثلًا أن أنامَ في السرير نفسه الذي تنام عليه مع زوجتكَ.

- مرّة أخرى، الموضوع نفسه.

- إنه هاجس المتأخّرة عقليًا، لكنكَ تحبّ المتأخّرات عقليًا، صحيح، يا فيدي؟ هنّ أكثر فجورًا، كما تعرف، ويمكنكَ أن تفعلَ معهنّ ما تريد.

- تسحرينني حين تتصنّعين السذاجةَ.

- الرجال كلّهم يحبُّون الساذجاتِ.

- كما ترين، في هذا أنا تقليديّ جدًّا. أريني مؤخّرتكِ، هيا.

- قل لي أوّلًا في أيّ جانب من السرير تنامُ زوجتكَ.

- هنا.

- إذنْ، نمْ أنتَ مكانَها. هكذا كأني أضاجعُكَ وأضاجعُ زوجتكَ، في الوقت نفسه.

- أنتِ تُهيّجينني هكذا.

- مزيجٌ من المؤخّرات المجتمعة.

- سنتخيّل أننا في فندق، يا باوليتا(*). هنا لديكِ كلّ ما ترغبين.

- وإن ظَهَرَتْ زوجتُكَ؟

- كيف ستظهرُ، إن كانت على بُعْد خمسمائة كيلومتر؟

- هناك أناسٌ، يمكنُهم الوجود في مكانَيْن، في الوقت نفسه. أنا، بالفعل، ألاحظ حضورها. لكنْ، لا تعقِّد الأمور، هذا يُثيرني أكثر. قلتَ لي إنها راحتْ لزيارة أمّها المريضة؟

---

*) باوليتا: اسم التدليل لـ باولا (م).

- نعم.

- هل تتخيّل أن تموتَ أمّها، بينما أنت وأنا هنا في السرير، نتضاجعُ كمجنونَيْن، وأن تطلعَ روحُها في لحظة القَذْف نفسها؟

أطلقَ فيدي قهقهةً، ضاعفت المزاجَ الجنسيَّ، تبعَهَا صمتُ الشفاه عند تلاقيها، وصمتُ اللسانَيْن مع تلامسهما. استنبطَ القائد الشبح أن المسمّاة باولا هي الموظّفة بمحلّ اللعب، وافترض أنها أصغر سنًّا من لوثيا، وبالطبع، من فيدي.

لم يكنْ صعبًا تخيُّل وَضْعهما: هو يهاجمُ، وهي تدافعُ عن نفسها، مجازًا، أمام انقضاضاته. ومن آن لآخر، لابد أنهما وَقَعَا متعانقَيْن على السرير، إذ بلغ صخبُهما عرين دميان، ثمّ نَهَضَا من جديد، ليُمارسا لعبةَ الحُبّ. ورغم فقدانه لحيويّته جرّاء سوء التغذية، اهتاجَ القائد الشبح قليلاً، لكنْ، ليس لدرجة أن يرغبَ في الاستمناء.

- أثارتْني تلك الألعابُ - قال دميان كأنه في بلاتوه تلفزيوني، لكن الواقع أنه لم يكنْ ثمّة بلاتوه ولا لقاء ولا صديق مُتخيَّل، لا شيء، كان يتكلّم مع الفراغ فحسب، وواصل الكلامَ لبرهة حتّى بَزَغَ في رأسه، وبطريقة مجانية، إنياكي جابيلوندو.

- أهلاً وسهلاً!- وَبَّخَهُ القائد الشبح.

- ماذا جرى؟- سأل الصُّحُفي.

- وَصَلَ فيدي إلى البيت بصُحبة امرأة، أعتقدُ أنها الموظَّفة بمحلّ اللّعب، ويتضاجعان بجنون.

- أوف، لم أكنْ أعرفُ أنكَ مُبَصْبِصٌ.

- لم أُبَصْبِصْ على شيء، فقط أتصنّتُ.

- تتصنّتُ، كأنكَ ترى.

- أستمع للتّأوّهات.

- لستُ مستعدًّا للكلام في هذه الأشياء في برنامجي- اعترض جابيلوندو.

- هذا لأنكَ تكرهُ التلفزيون القمامة، مثل أبي. مع سيرخيو أوكان كان هذا المشهد سيتحوّل لمشاهدة عالية عالميًا.

- استدعِ، إذنْ، سيرخيو أوكان - أنهى جابيلوندو، بشعور بالإهانة، مختفيًا من جديد من رأسه.

ولأن سيرخيو أوكان لم يظهر، رغم استدعائه، تعرّض القائد الشبح لنوبة قَلَق، قاومَها بسَرْد الحَدَث الجنسي للهواء، بالتكنيك الشفاهي نفسه تقريبًا، للتعليق على مبارة كرة قَدَم. اكتشف أنها طريقة للتشويش الذهني، والإنهاك البدني. وبالفعل، حين وَصَلَ الرجل والمرأة لأورجازم فضائحي، في وقت واحد، وبلغت موجاته كهفَ الشبح، كأنها، أكثر من المضاجعة، فعلُ اقتتال، ارتختْ عضلاته كلّها، كأنه أيضًا انتهى من القذف مثلهما.

ولأن العشيقَيْن، بعد دقائق من الصمت، بدآ بالتهامس بالعبارات، أكثر من كونها نطقًا، جازف القائدُ الشبح بفَتْح الباب القائم في جدار الأثاث الخلفي، ليعبرَ من خزانة الحائط للخزانة الخشبية حتّى يستمعَ لما يقولان.

- ما هذا؟- سأل فيدي عند سماعه لصخب قادم من الخزانة (كان رأس الشبح قد اصطدم بشمّاعة فارغة، كانت على وشك أن تسقط).

- أنا لم أسمعْ شيئًا- قالت المَدعُوّة باولا.

- أكيد؟

- أكيد. من أين؟

- هنا من الخزانة.

- ربّما يكون شبحًا، أو مخبرًا، أجّرتْهُ لكَ زوجتُكَ.

- مخبرٌ؟ لا، لن يخطرَ ببالها، لكن فكرة الشبح لا أرفضها. تعتقد لوثيا في الأشباح. سأقوم لأرى.

- لا تهتمّ، لا تنهض الآن، لا تكنْ ساذجًا. هل هي على بُعْد خمسمائة كيلومترًا أم لا؟

ظلّ القائد الشبح بأنفاس مكتومة، دون أن يتجرّأ على العودة لمخبئه بخزانة الحائط خشية أن يثيرَ صخبًا آخر. لم ينهضْ فيدي في النهاية، وواصل العشيقان الحديثَ عن لوثيا بنبرة ساخرة.

- أترين هذه الخزانة الفظيعة؟- سأل الرجل.

- نعم، هل جلبتُمُوها من فيلم رعب؟ تبدو كأثاث جنائزي.

- اكتشفتْها لوثيا في سوق، واتّضح أنها كان ملْكًا لجدَّيْها، اللذَيْن كانا يعيشان في قرية بسانتاندر، وقَضَتْ معهما جزءًا من طفولتها. لقد ميّزتْه،

لأن اسمها على الضلفة اليمنى بجانب العلامات التي تشير لنُمُوّ الأطفال. سأُفرِّجُكِ عليه بالتفصيل، فيما بعد.

- يا للصدفة!

- الحال أنها اشترتْها دون أن تستشيرَني، ولا شيء، خشية أن تفقدَهُ، وأصرّتْ على وَضْعه هنا، لتُخفي بذلك خزانة الحائط الذي كان في الغرفة، وكان كبيرًا. نحن، بالتالي، لدينا هنا في الخلف نوعٌ من المُعتَقَل. إن أردتِ في يومٍ اختطافَ أحد، ها أنتِ تعرفين.

- هل زوجتُكَ مجنونة قليلًا؟

- لديها أشياؤها.

- ألم تقلْ لي أيضًا إنها بإصبع مبتور؟

- نعم، سبّابة يدها اليمنى. فَقَدَتْها تحديدًا عندما قفل عليها الباب الرئيس لهذا الخزانة.

- يُثيرني غياب إصبع السبّابة هذا، تُثيرني الخزانة الجنائزية، يُثيرني أنكَ تنامُ فوق بصمة جسدِ زوجتِكَ، يُثيرني أن اسمكَ فيدِريكو ...

- سيربيلا فاليوم بيرتيرا إنجانيا.

- يوو، لا تُكلّمني هكذا، لأنكَ تقتلُني. هيّا، المسْني.

- بماذا؟

- بإصبع زوجتكَ المبتور.

استغلّ القائد الشبح أن العشيقَيْن عادا للتعانق، برغبة أكثر من المرّة الفائتة، ليعود من الخزانة الخشبية إلى خزانة الحائط، حيث وَصَلَ مُنهَكًا. مُتجاوِزًا الجدارَ، اضطجع على البطّانية، مُتّخذًا في الحال وَضْع الجنين، وغمَّض عينَيْه، وفكّر في الحياة الملأى بغرائب مثل تلك التي انتهى من مشاهدتها، والجديرة بأن تكون فصلًا في كتاب بعنوان حياة الحشرات. قد لا يعرفُ تبرير العنوان، لكن فيدي (أو فيدريكو) والمَدعُوّة باولا يبدوان له بسلوك، يُشبهُ الحشراتِ أكثر منه الثدييات. وعند تفكيره في يد لوثيا اليمنى، وفي غياب إصبع السبّابة، شعر برقّة بلا حدود تجاهها، تجاه إصبعها، وتخيّل أنه يعانقها حتّى يحميَ بقية الأصابع. بهذه الطريقة، نام في تلك الليلة.

-٣-

رنّ الراديو المنبّه في الساعة المعتادة، وبحمولة استياء مشابهة (مصرع زوجَيْن شابّيْن في ألكوركون جرّاء انفجار سخّان غاز). تأثّر الشبح بالخبر أكثر من العشيقَيْن، إذ كانا مَهووسَيْن، منذ فَتَحَا عيونهما، باكتشاف جسد الآخر، كأن أحدًا غيّر لهما هذا الجسد خلال الليل، ويحتاجان لتجديد معرفتهما به. وخلال عشرين دقيقة، استكشف كلّ منهما الآخر، بشعور من المتعة أو الألم، عكستْه حشرجاتُ كلٍّ منهما، شكواه وصرخاته، خاصّة فيدي الذي صاح بضيق بأنهما سيصلان متأخّرَيْن إلى المحل.

بعد نزولها من السرير، ورغم أنها مُنهكَة، فَتَحَت المَدعُوّة باولا الخزانة ذات الثلاث ضلف بانطباع المندهشة أمام عمقه الكبير. فكّر دميان، نظرًا لتردّد صدى كلمات المرأة بين جدران الخزانة الخشبية كأنها كاتدرائية، أنها أدخلت رأسَها فيه، ونَطَقَتْ بهذه الانطباعات. ثمّ أغلقت البابَ، وعلّقتْ لفيدي بصراخ أن رائحته عفنة.

- رائحة روث دجاج قديم - أجاب فيدي من الحمّام بصوت عالٍ -. لقد استخدموه لفترة كعشّ دجاج.

علّقت المرأة بعبارة، لم يسمعْها دميان بوضوح، كانت عن الصّحّة العقلية لزوجة عشيقها، ثمّ بدأت الضوضاء الخارجية في الحال تُناسب حالةَ أيِّ زوجَيْن، يستعدّان لمواجهة يوم عمل. ولتعويض الوقت الضائع

في السرير، استغنيا عن الإفطار، هكذا جاء صخبُ باب البيت الذي يطلّ على المرأب في موعده المعتاد حين تخرجُ العائلة الحقيقية من البيت.

انتظرَ القائدُ الشبح قليلاً، كما العادة، خشية أن يعودا لنسيانهما شيئًا، ثمّ خَرَجَ من مخبأ خزانة الحائط، وعَبَرَ الخزائن ذات الثلاث ضلف، وظَهَرَ في غرفة النوم بحركات خفيفة وشبه متموّجة، كأنه دخان. كان منظر الغرفة كارثيًا. كانت مَرتَبَةُ السرير على الأرض، مَهروسة ومَسحوقة، ومن المُلاء المُكَرْمِشَات تفوح رائحة كلور أو مبيّض، رائحة الحيوان المَنوي المميّزة التي بَدَتْ لدميان غير مُحتمَلَة. كانت الكارثة في الحمّام أيضًا، إذ اكتشف في الحوض خصلاتِ شعرٍ طويلةً ونحاسيةً، لابد أنها خصلاتُ المَدعُوّة باولا، كذلك بقايا معجون أسنان منثورة على سطح الحوض، هنا وهناك، مثل براز دودة شاحبة. كانت المناشف المبتلّة مَرمية على البيديه، وآخر مَن استخدمَ المرحاض منهما، لم يشدّ السيفون.

تَرَكَ دميان كلَّ شيء على حاله حتّى لا يلفتَ الانتباه لوجوده، وراح يستخدمُ حمّام ماريا. ثمّ اصطدمَ في المطبخ بأكواب متّسخة مُوزَّعة على بار المطبخ، وبأطباقٍ، لم تُغسَل، وبقايا طعام، أخرجاه من الثلاجة، ولم يُعيدَاه إليها. كان يتساءلُ، مكتئبًا، إن كان قادرًا على تحمّل هذه الدرجة من الفوضى لوقت طويل، حين اكتشفَ أن أحدَ العشيقَيْن قد نسيَ، بينما يوصّل قابس الميكروويف، شاحنَ موبايل من ماركة وطراز موبايله نفسه.

أدهشَهُ الاكتشافُ، إذ مَنَحَهُ الفرصةَ لتشغيل هاتفه حين انفصلَ بالفعل عن العالم الخارجي، فقرّر أن يشحنَ البطّارية، ويتّصل بأبيه أو بأخته، ليطمئنّ إن كان أحدهما قد مات، أو بلّغ عن غيابه. في بعض المرّات، كان لديه وسواس بالاتّصال بهما من الهاتف الأرضي بالبيت، لكن

هذه المكالمة كانت ستُسجَّلُ وتظهرُ في فاتورة الهاتف، وستصيرُ دليلاً في وقت طَلَبِهَا المحتمل.

وأيضًا لأسباب خاصّة بالأمان، تجنّب خلال تلك الفترة الخروج للحديقة: ربّما هناك كاميرات في الحيّ، فتلتقط صورته، وربّما يمكنُ تصويره بأحد الأقمار الصناعية المتعدّدة التي تدور حول الأرض. لقد دَخَلَ هذا البيت في خزانة، ولن يخرجَ منه إلا بطريقة شبيهة. في تابوت؟ فكّرَ بحزن.

على أيّ حال، فكرةُ أن يتركَ البيت، أو يُطرَدَ منه، وكانت تُهاجمُهُ كلّ فترة، كانت تُسبِّب له ضيقًا غير محدود، إذ كان يشعر بأنه منفصل تمامًا عن الواقع الخارجي.

استعاد الموبايل، في النهاية، ووصَّله بالشاحن المَنسي، وبعد فطار خفيف جدًّا، توجّه لغرفة ماريا، ليكتبَ قليلاً على الكمبيوتر. تحقّق مُتفاجِئًا من أنهم في المنتديات الخاصّة بالماورائيات يفسِّرون صمتَ الأشباح بكثافة كلماتهم نفسها.

- صَمْتُ القائد الشبح مليء بالأصوات - كَتَبَ أحدُ روّاد المنتدى.

- الفراغات كلّها ممتلئة - كَتَبَ هو لمجرّد أن يقول شيئًا، مثيرًا سيلاً من التعليقات.

وفي الحال، خَرَجَ من المنتدى بعد أن دَخَلَهُ على أمل أن تكون لوثيا قد عَثَرَتْ على طريقة لدخول الإنترنت، وبدأ في التّجوّل بصفحات مُتعلّقة بفقدان الشهية والحيض، ثمّ فجأةً، دون أن يبتعدَ عن الشاشة، وَجَدَ نفسَهُ أيضًا في بلاتوه إنياكي جابيلوندو.

- ماذا تفعلُ؟- سأله الصحفي.

- كما ترى- قال دميان-، أحاول فَهْمَ مشكلة ماريا، مراهِقة هذا البيت، والتي لم تأتها الدورة حتّى الآن. أعتقد أن المسألةَ لها علاقة بالاضطراب الغذائي الذي تعاني منه. وإن كنتُ مشغولاً بها، فعليّ أن أفهِمَهَا مشاكلَها.

- وهل ستتبنّاها؟- سأل إنياكي.

- طيّب، بطريقة ما، أنا تبنّيتُ العائلةَ كلّها.

حينئذ غيّر جابيلوندو الموضوعَ سريعًا:

- هل تعرفُ أن لقاءاتِنا الأخيرة حقّقتْ نجاحًا كبيرًا حين أُذيعَتْ؟- قال.

- هل لديكَ أرقامٌ بالمُشاهَدَة؟

- في قناة مدفوعة، لا يهمّ كثيرًا كَمّ المشاهدين بقدر نوعيّتهم. أغلب المشتركين في قناتنا جامعيون، ويشغلون مناصبَ عالية، وينتمون إلى الطبقة الأكثر تأثيرًا في المجتمع.

عند قول ذلك، وجّه جابيلوندو نظرةَ اعتراف، وربّما امتنان، للكاميرا.

- تلقّينا مكالماتٍ كثيرةً مهتمّةً بكَ – واصل -، مهتمّةً بوجودكَ معنا، ومهتمّة بأسباب إقصائكَ الاجتماعي، لكنها مهتمّة كذلك بهذا النوع من فقدان الشخصية، كنتيجة طبيعية للرأسمالية، والذي أدّى بكَ، لتتحوّل إلى نجم على الشاشة الصغيرة.

- هل أنتَ أيضًا مَهووس بالرأسمالية؟

- أنا مراقبٌ للواقع، وحالتُكَ، بالنسبة لسوسيولوجي، تمثّلُ نموذجًا للتّحوّل في الشخصية.

- فقدان الشخصية، التّحوّل في الشخصية؟

- إنها مصطلحاتٌ، تُستخدَم، لتُشير لعملية صعوبة بناء هوية خاصّة تحت أنظمة اقتصادية محدّدة.

- وهل من الممكن بناء هوية دخيلة؟

- هذا تحديدًا ما نتحدّث عنه، التّحوّل إلى آخر.

- وهل لهذا علاقة بمَحْوِ الشخصية الذي تحدّثتَ عنه المرّة الفائتة؟

- بطريقة ما، نعم.

- قرأتُ عنه في ويكيبيديا، ولم أشعرْ بأن الحالة حالتي.

- الشخص فاقد الشخصية غير مُدرِكٍ بتحوّله لآخر. من هنا يأتي نجاح هذه الأنظمة السياسية والاقتصادية، فدعمُها الحقيقي يأتي بالتحديد من ضحاياها.

- هل أنتَ شيوعيّ، يا إنياكي؟

- لا تنسَ أن مَنْ يسأل هنا هو أنا.

- اتّفقنا، وأنا وظيفتي الإجابات، وإجابتي على كلّ ما تقوله أني لا أستجيبُ نهائيًا للمسائل السياسية. أحتفظُ بنفسي على هامش السجال الحزبي، مثل الطبّاخين ولاعبي كرة القَدَم. لديّ معجبيني من اليسار واليمين والوسط، من الأطياف السياسية كلّها، ومُضطرّ، احترامًا لهم، أن أبقى محايدًا.

- لكنْ، لن يضايقَكَ، نظرًا لأنكَ شخصية عامة، أن نقتربَ من حياتكَ الخاصّة.

- عليكَ أن تنتظرَ، يجب أن أراجعَ رسائل الموبايل، لأنه كان في الشاحن.

ودون أن يخرج ذهنيًا من البلاتوه، توجّه دميان لوبو إلى المطبخ، فَتَحَ الموبايل بعد أن شُحنَت البطّارية، وراجعَ الرسائل. كان هناك ثلاثون أو أربعون رسالة، كلّها دعاية، باستثناء واحدة كانت عن مكالمة من أخته.

- أتّصل بأختي - قال للصُّحُفي - لأعرفَ كيف تسيرُ الأمورُ هناك.

- خذْ راحتكَ.

ردَّتْ أختُهُ دون أيّ تعبير دهشة من صمت دميان الطويل.

- ستسألين نفسكِ لماذا لم أتّصل منذ فترة طويلة؟ - قال هو.

- إطلاقًا - قالتْ أخته -، اعتقدتُ أنكَ سافرتَ لأليكانتي.

- ولماذا أليكانتي؟- سأل.

- لا أعرف شَرْحَ ذلكَ. فكّرتُ: هو لا يتّصلُ، وبزغتْ في ذهني فكرة أليكانتي.

تحدّثَ دميان لبرهة، وعاد للبلاتوه، ليُخبر جمهورَه أن عائلتَه بخير، وأن أباه استثمرَ مدّخراته كلّها، بما فيها أموال المعاش، ليفتَحَ لأخته الصينية محلًا للهدايا وسط حيّ سلامنكا.

- محلّ هدايا فخم – أكّد -. شيء شبيه بقناة canal + لكنْ، كمحلّ. وتقول إنه يسير على ما يرام.

- لكنّ أبَوَيْكَ ليسا صينيَّيْن، أليس كذلك؟- سأل جابيلوندو.

- هما لا، لكن أختي نعم.

توجّه دميان للكاميرا، وشَرَحَ للمشاهدين قصّة عائلته: أن أبوَيْه، بعد زواجهما بعامَيْن أو ثلاثة، ولأنهما لم يُنجبا، تبنّيا طفلةً صينيةً، وراحا بنفسَيْهما إلى ملجأ بمدينة في هذا البلد البعيد.

- وفي الواقع، وبحسب ما أعرفه، فقد اشترياها - قال.

- كم كان سنُّها؟- سأله الصُّحُفي.

- شهران أو ثلاثة- قال دميان.

- ولماذا لم يتبنّيا طفلاً إسبانيًا؟- سأل جابيلوندو.

- كانت فترة تسود فيها القوّة الشرائية، وكانت الموضة هي التضامن مع العالم الثالث.

- لكن الصين هي ثاني قوّة في العالم.

- ربمّا لم تكن كذلك في تلك الفترة، لا أعرف. كان مفخرة.

أشار بعد ذلك إلى أن أمّه، بعد عامَيْن من التّبنّي، صارت حاملاً بشكل مفاجئ.

- ولأنه لم يكن في مخطّطاتهما إنجاب طفل ثان، لأن الصينيةَ كانت قد أشبعتْ غريزة الأمومة والأبوّة لدَيْهما، استقبلاني كأني أنا الطفل المُتبنّى.

- هل كانا يسيآن معاملتَكَ؟- سأل جابيلوندو.

- فلنقلْ كأنهما يسديان لي معروفًا. كأنهما أخذاني من ملجأ. كانت

أختي الصينية تتمتّع بجاذبية فوق العادة، بينما كنتُ أنا، على العكس، طفلاً معتمًا، عابسًا. وشعرتُ في الحال كأني قادم من الخارج، من مكان بعيد جدًا.

- انتظرْ، انتظرْ، اشرحْ لنا هذه التفصيلة - ترجّاه جابيلوندو.

- أفكّر أحيانًا أنهما كانا يُفضّلان أختي عليّ، لأنها نتاج صفقة اقتصادية.

- طبيعة الرأسمالية - قال جابيلوندو.

- يا لهَوَسكم بالرأسمالية!

- معذرة، لقد قلتَ ذلك من قبل. لكنْ، استمرّ من فضلكَ.

- في تلك السنوات، تعاقدَ أبواي مع خادمة صينية، وقالا حتّى تجدَ أختي مرآةً، تنظرُ فيها. كانا خائفَيْن من أن تعيشَ فرادتها كنقيصة، وأن تكونَ ملامحها عائقًا أمام اندماجها في العالم. مع ذلك، مَنْ كان يقضي الساعات في المطبخ مع الخادمة الصينية، ووَجَدَ نفسه فيها كنتُ أنا. كانت أختي تتصرّف كامرأة إسبانية عادية، بينما كنتُ أنا مَنْ أشعر كلّ يوم بأني صيني. كنتُ أقضي الساعاتِ أمام المرآة، أضيِّق في عينيّ، كي أشبهَ الخادمةَ، التي بالإضافة كانت تحبّني كابن. وذات يوم، اعترفتْ لي بأني الطفل الذي لم تُنجبْهُ.

- وماذا كانت هي بالنسبة لكَ؟

- الأمّ التي لم تُنجبْني أيضًا. وحين انتبهَ أبواي لعُمق الرابطة بيننا، طَرَدُوها. وكانت هذه صدمة فظيعة.

- وفقدتَ الاتّصال معها تمامًا؟

- ليس تمامًا، استطاعتْ هي أن تُرتِّبَ نفسَهَا، لتظلَّ تراني. كانت تأتي للمدرسة في وقت الفسحة، وتتابعُني بنَظَرها من البوّابة. كانت تمُرِّر لي ورقات، تقول لي فيها إنها تحبّني، ولا أزالُ أحتفظ بها، وكنتُ في عيد الأمّ، أرسمُ لها تنانين.

- ذلك كلّه من وراء أبوَيْك؟

- نعم، لم يعرفا ذلك إطلاقًا.

- وهل لا تزالُ على اتّصال بها؟

- منذ فترة لم نتكلّم، لكنْ، لديّ عنوانها وهاتفها المحمول. هي الآن على المعاش. عجوز جدًا. تعيش في غرفة في محطّة أوسيرا، قريبة من بيتي نسبيًا، وأحيانًا أروح لزيارتها.

- ربّما نتمكّن ذات يوم من دعوتها إلى البرنامج.

- ربّما.

- لكنْ، ماذا يحدثُ لكَ، هل تبكي؟

- يعني، انفعلتُ قليلاً عندما تذكّرتُها.

- ما اسمها؟

- آي، وبالصدفة يعني الحُبّ.

- وأختكَ الصينية؟

- ديسيريه، ويعني مَرغوبة.

كان دميان يعرف القيمة الإعلامية للدموع، حتّى في قناة مدفوعة، لكنه قَمَعَهَا لمعرفته أن جمهور هذه القنوات يمتنُّ للتّحكّم في المشاعر أكثرَ من الاستعراض بها. من أجل ذلك أيضًا، لم يضعْ إنياكي إصبَعه في الجرح.

- اسمحْ لي - قال دميان بينما ينهضُ بفكرة أن يتركَ البلاتوه - لديّ أمورٌ، يجبُ أن أفعلَها.

- تفضّل- قال الصُّحُفي.

-٤-

في عصر ذاك اليوم، عاد فيدي والمَدعُوّة باولا، ودَخَلاَ في السرير على الفور. وبينما كانا يمارسان الألعابَ الجنسيةَ نفسَهَا لليوم السابق، كَمَنْ يتبع روشتةً رياضيةً، كان دميان نائمًا على ظهره داخل مغارته، بيدَيْن متقاطِعَتَيْن وراء عنقه، وعينَيْن مفتوحَتَيْن على السقف، ويشعر داخل رأسه ببصيص ضوء، يتبعه سلام داخلي، مَنَحَهُ برهانًا على أن كلّ شيء في مكانه الطبيعي. قال ذلك لـ جابيلوندو:

- أضاء في رأسي نور الآن.

- ألا يكون سكتة دماغية؟- سأله الصُّحُفي بتهكّم.

- لا، ليست سكتة دماغية؛ إنه شعاع من هذه الأشعّة التي تضيء لثوانٍ مكانًا مظلمًا، وتستطيعُ من خلاله أن ترى فجأةً مكان المنضدة، الكراسي، المطبخ، وكلّ شيء في مكانه بحسب نظام، لا ينتمي لهذا العالم. هكذا أُضيء عقلي، ورأيتُ كلّ فكرة فيه في مكانها.

- تبدو تجربة صوفية - أشار جابيلوندو دون أن يتخلّى عن نبرة تهكّم، لم يقدّم دميان أيّ أمارة لالتقاطها.

- سَمِّها كما تشاء. المسألة أني تيقّنتُ، دون أدنى شكّ، من أني في مكاني.

- وهل خزانة الحائط مكانكَ؟

- خزانة الحائط وهذا البلاتوه هما الآن مكانيّ، وباستطاعتي أن أشغلَهُما في الوقت ذاته، بالطريقة نفسها التي تقفزُ بها الفكرة إلى رأسَيْن مختلفَيْن في اللحظة نفسها.

- وهل تعدّ نفسَكَ فكرة؟

- بالطبع، أنا أقربُ لكوني فكرة من كوني شخصًا من لحم وعظم.

- لكنْ، ألا يزال فيدي وباولا يتضاجعان أم لا؟- قاطَعَهُ الصُّحُفي.

فاجأه السؤال، لم يكن أسلوبَ جابيلوند، وبقدر ما كان أسلوب سيرخيو أوكان.

- هل يحبُّ جمهورَكَ المشترِك الجنسَ الرخيصَ أيضًا؟- سأل مُتعمِّدًا.

تنحنحَ جابيلوندو، كمُحاصَر في مزنق، وفي تلك اللحظة، اكتشفَ دميان في عينَيْه جمراتٍ صفراءَ، تُشبهُ الجمراتِ الملتهبةَ بين حَدَقَتَي سيرخيو أوكان، فاستنبطَ أن روحه قد غزَتْ جسدَ الصُّحُفي الشهيرَ وعقلَهُ.

- ها أنتَ هنا من جديد، يا سيرخيو؟!- سأل دميان.

- لكنْ، بشكل مختلف. لا تتعجّلْ، فالشكل هو كلّ شيء - رد الشومان.

قيَّم دميان لوبو الموقفَ. كان يروق له وقار جابيلوندو، غير أنه اشتاق للشعبية التي يمنحُها له أوكان. ربّما عقل الأوّل في جسد الأخير كان حلاً للمعضلة.

- وبماذا يجبُ أن أناديكَ منذ الآن، سيرخيو جابيلوندو أم إنياكي أوكان؟- سأل.

- نادني إنياكي أوكان - قال الشومان - أقدِّر لقبي أكثر من تقديري لاسمي. لكني كنتُ أسألكَ إن كان فيدي وباولا لا يزالان يتضاجعان.

وكان فيدي وباولا، بالفعل، يتقدّمان بالوصفة الرياضية، رغم أنه لم يتبقّ لهما إلا وصفة أخيرة، فكّر دميان، سيقعان بعدها مُنهَكَيْن، أحدهما بجانب الآخر، إذ وَقَعَا في صمت مطلق خلال الدقائق التالية.

- الصمت المطلق الذي نشعر به من داخل ظلام مطلق هو الأكثر شبهًا بالموت - شرح دميان لوبو للشو مان.

- وهل جاءكَ شعورٌ بأنكَ ميت؟

- بالضبط. ثمّ ألصقتُ أذني بالحائط الخشبي، وبدا لي أني أسمع صوت شخير فيدي.

- ثمّ؟

- انتقلتُ من خزانة الحائط للخزانة الخشبية بمرونة شبح، وبعد أن تحقّقتُ من أني لم أُحدِثْ أيّ خَلَل في الجانب الآخر، دفعتُ الباب الرئيس قليلًا حتّى صرّ برقّة دون أن يتلقّى أيّ ردّ. وبعد ثوانٍ، أطللتُ برأسي، ورأيتُ العشيقَيْن عاريَيْن على السرير، كلّ منهما بجانب الآخر نائم بعمق. لقد غَطّا في نوم عميق، لدرجة أني تجرّأتُ على تَرْكِ الخزانة، واقتربتُ على أطراف أصابعي، وتأمّلتُ وجهَيْهما. كان لها وجهٌ مبالغٌ فيه، تتنافس ملامحه كلّها في البروز: عينان جاحظتان، أنفٌ مرتفعٌ، شفتان مكتنزتان ربّما جرّاء عملية، جبهةٌ عريضةٌ ...

- وجسدها؟

- الشيء نفسه: صدرٌ كبيرٌ، مؤخّرةٌ عريضةٌ، خصرٌ شديدُ النحافة.

- جذّابة جدًا، إذنْ؟

- لكنها الجاذبية السُّوقيّة، أقرب لقناة Telecinco منها لقناة Canal+

لابد أن إنياكي أوكان تلقّى، عبر المايك، رسالةً من المخرج.

- لا تتسرّعْ - أجاب الشومان مُتوجِّهًا لنقطة غير محدّدة في الفضاء -، ميزة التسجيل أننا نضيف ونمسح بحسب ما يحلو لنا.

كان دميان، في أثناء ذلك، يلاحظ ملامح فيدي المناقضة تمامًا لملامح المرأة. كانت ملامحه شبه ضبابية، "نصف ممسوحة"، قال لنفسه. كلّ ما في هذا الوجه كان يبدو جنينيًا: عينان صغيرتان، أنفٌ صغيرٌ، فمٌ صغيرٌ (مواربٌ). كان يتمتّع بشيء من جنين، يطفو في سائل الحلم الحامي. أما ملابسهما، المنثورة حول السرير، فكانت تمنح لغرفة النوم مَلمَحًا فوضويًا، يثير ضيقَ الشبح. وقبل أن يعودَ إلى مخبئه، وبحركة رعناء، مدّ يَدَهُ للباس المرأة الدّاخليّ، وأخذه معه.

حين استيقظ العشيقان بعد ساعات، طَلَبَ فيدي بيتزا بهاتف الكومودينو الأرضي، وأكلاها على السرير، وشربا معها عدّة زجاجات بيرة، بينما كانا يُعلّقان بتعليقات مازحة حول وَضْعِهِما:

- هل تتخيّل أن ترانا زوجتُكَ؟- سألت المَدعُوّة باولا.

- لأن البيتَ نظيفٌ، قد يصعقُها هذا الموقفُ - أجاب فيدي.

- أيّهما سيصعقُها أكثر، أننا نتضاجعُ مثل المجانين أم أننا نأكل البيتزا على السرير؟

- أكل البيتزا. قلتُ لكِ إنها شبه باردة.

- منذ متى لم تمارسا الجنسَ؟

- أوف، من قبل وصول الخزانة.

- تتحدّث عن قبل وصول الخزانة وبعدها مثل المؤرّخين حين يتحدّثون عن قبل ميلاد المسيح وبعده.

- الحال أنه كان هناك قبل وبعد. القَبْلُ لم يكن مُبهِرًا، لكن البَعْدَ كان فظيعًا، ولا يزال فظيعًا. لا أحتملُه أكثر من ذلك.

- ولماذا تزوّجتَها؟

- من أين أعرفُ أنا؟ هل يعرفُ أحدٌ؟ فَقَدْتُ أبويّ مبكرًا جدًا، وعاملَني أبواها كابن لهما. كنتُ أفضّل البقاء مع أبوَيْها أكثر من البقاء معها. هما أعطياني المال، لأقيمَ محلًا. ثمّ مات أبوها، وكانت علاقتُنا أفضلَ ما يكون، وراحت أمّها لتعيشَ في سانتاندر، في بيت أجداد لوثيا، من حيث جاء الخزانة.

- ستحبّ أيضًا أبويّ، إنهما محبّان، ولا يزالان حيَّيْن - قالت باولا بنبرة دلال، ضاحكَة.

- لابد أنهما يُرتّبان السرير الفوضويّ - علّق دميان لإنياكي أوكان.

- طيّب، لا تتسرّعْ. هل تعرفُ عدد المشتركين في قناة Canal+ منذ بدأتَ في بَثِّ لقاءاتكَ؟

- ليس لديّ فكرة.

- عشرون ألف، وعمليًا في أربعة أيّام.

- وكم عدد مَنْ ألغى الاشتراك؟

- عدد الإلغاء ثابت.

- لابد أن أبي من بين مَنْ ألغوا الاشتراك.

- هل أنتَ مشغول به؟

- لا أعرف، كان يتمنّى دائمًا أن يراني في Canal+، لكن الأبناء يبلغون رغبة آبائهم متأخّرين. هل يمكن أن تقدِّمَ لي معروفًا، يا أوكان؟

- قلْ لي.

- البسْ عدساتٍ، تخفي جمرَتيْ عينَيْكَ الصفراوَيْن. إنها الشيء الوحيد الذي يشي بأنكَ لستَ إنياكي جابيلوندو.

- سأفعلُ ذلك من أجلكَ. ومن أجل أبيكَ.

-٥-

وبعد أن أجهزا على البيتزا والبيرة، لابد أن فيدي والمَدعُوّة باولا قد استراح واحدهما بجانب الآخر مثل العشّاق في الأفلام: رأسُها على صدره، وأقدامهما متشابكة كمجموعة من الجذور. هكذا تخيّلهما دميان حين تحقّق من أن صوتَيْهما انخفضا حتّى صارا غير مسموعَيْن تقريبًا، ما اضطرّه لتَرك خزانة الحائط بألف حيطة، والإقامة في الخزانة الخشبية، مُتمهِّلًا حتّى يتّخذ وَضْعًا مريحًا، وفي الوقت نفسه صالحًا للعودة سريعًا لمخبئه، إن تطلّبت الظروف ذلك. وفي اللحظة التي تمكّن فيها في النهاية من إلصاق أذنه بباب الخزانة، كان فيدي يحكي لباولا قصّة تعرّفه إلى لوثيا.

- ... في المستشفى، تخيّلي. التقينا بالصدفة هناك، لأننا حسّاسان من قرصات الدبابير، وكان دبّور قد قَرَصَنَا. كنّا على وشك الموت، لأن مزمار الحنجرة ينسدّ، وكما تعرفين لا يمكن أن تتنفّسي. وعندما استعدتُ عافيتي، طلبتْ منّي إحدى الممرّضات أن أزورَ فتاةً، حجزوها بعدي، لأرفعَ من روحها المعنوية، وكانت هذه الفتاة هي لوثيا.

- كم دبّور قَرَصَكُما؟

- دبّور لكلّ منّا، لكنْ، إذا كنتِ حسّاسة جدًا لسُمِّه، لن تحتاجي أكثر من قرصة. إلا إذا كنتِ ممّنْ يأخذون وَقتَهُم.

مرّ صمتٌ لزجٌ، استغرق عدّة ثوانٍ، وكَسَرَتْه باولا بسؤال بنبرة مازحة.

- سيكفي زوجتَكَ، إذنْ، أن يقرصَها دبّور حتّى تموتَ؟

- ربّما دبّور واحد فقط لا يكفي. كلانا يحمل ترياقًا معه. لكنْ، فيما تفكّرين؟- قال فيدي.

- ما تفكّرُ فيه نفسه، يا قلبي.

- لا تكوني حمارة.

- انظرْ - ألحّتْ -، تخيّلْ أنكَ تستطيعُ أن تقتلَ زوجتكَ فقط بالتّمنّي. تفكّر أن زوجتكَ تموت، فتموت زوجتكَ.

في تلك اللحظة، رنّ هاتف الكومودينو، وردّ فيدي. كانت لوثيا، وسألتْهُ كيف الأحوال؟ وقال الرجل كلّ شيء تمام، وإنه كان يفكّر في النوم مبكّرًا، ليذهبَ لمحلّ اللعب مبكّرًا جدًا، حيث كان قد بدأ الجردُ. وكان دميان ينقلُ الأحداث لإنياكي أوكان الذي بدا أنه تكيَّفَ دون صعوبة على تقشُّف بلاتوه Canal+، الخالي من جمهور، يتفاعل مع ما يقوله.

- وماذا تفعل المَدعُوّة باولا؟- سأل الشومان.

- أعتقد أنها لا تتنفّس حتّى لا تنتبهَ لوثيا لوجود أحد مع فيدي - أجاب دميان.

وبالفعل، لم يُسمَع أيّ صوت غير صوت الرجل، وكانت حياديّته مُلفِتَة. سأل كيف حال أمّ لوثيا؟ وكيف حال ماريا؟ ولابد أنه تلقّى إجابات مُرضية، إذ في الحال بَحَثَ عن ذريعة (يضع شيئًا على النار)، ليُودِّعَهَا. وبعد أن أنهى المكالمةَ، أطلقَ تنهيدةَ راحةٍ مصحوبةً بضحكةٍ من المَدعُوّة باولا.

- كنتَ تبدو مُتحجِّرًا، مؤكّد أنها لاحظتْ شيئًا - قالت المرأة.

- ماذا تقولين؟ ألم أكنْ طبيعيًا؟

- كلّ ما هو طبيعي في رجل يتحدّث مع زوجته بالهاتف وهو يضطجعُ على سريرهما وبرفقتِهِ امرأة أخرى عارية.

- وماذا كنتِ تقولين قبل ذلك عن القَتْل بالتّمنّي؟

- هذا، إن كنتَ تستطيعُ أن تقتلَها بالتّمنّي فقط، هل ستقتلُها؟

- انظري، دعيني أفكّر، بالتّمنّي ...

- لكن المؤكّد أنكَ تخيّلتَ ذلك مرّات كثيرة.

- يعني، نعم، لكنْ، كمجرّد تدريب خيالي. وأنتِ، ألم تتمنّي أبدًا موتَ أحد؟

- آلاف المرّات. لكن الناسَ ملعونةٌ جدًا، ولا تموتُ بهذه البساطة.

- بهذه البساطة، لا، بالطبع، يجب أن يحدثَ لهم شيء.

- أتعرف ماذا أتذكّر؟- سألتْ باولا بصوت مرتفع.

- قولي لي.

- أتذكّر أني في الصيف الماضي قرأتُ في جريدة أن رجلًا، أظنّه من قرية من قرى أستورياس، قد مات حين نَقَلَ لحاوية بالخارج كيسَ قمامة، كان قد تَرَكَهُ الليلة السابقة في الحديقة. كانت بالكيس بقايا طعام، وكان ممتلئًا بالدبابير التي ما إن حرّك الكيسَ حتّى خَرَجَتْ من فتحته، وهاجمتْه بشراسة. كان مصابًا بالحساسية أيضًا، ولم يصلْ للمستشفى حيًا.

- مصابٌ بالحساسية فاجأتْه خلية دبابير، وكان لديه استعداد.

- ومصابة بالحساسية؟

- ماذا تقولين؟

- لا شيء، ماذا يمكن أن يحدثَ لمصابة بالحساسية.

- ماذا من الممكن أن يحدثَ لها؟ الشيء نفسه.

- إذنْ، اتّفقنا، أليس كذلك؟

- على ما اتّفقنا؟

- هيّا، يا فيدي، لا تتصنّع الغباء.

- أنتِ مُختلّة، يا باوليتا.

- انظرْ - أضافتْ ضاحكة -، ستبدأ الدبابير في الحضور. إذا أردتَ، يمكن أن أتكفّلَ أنا بجَمْعِها، وحين أجمعُ عشرين أو ثلاثين، أمرّرُها لكَ، وأنتَ تضعُها في كيس القمامة، ولا تشدّه جيّدًا، وتقول لـ لوثيا أن تحملَهُ للحاوية.

- أنا مَنْ أرمي القمامة دومًا.

- إذنْ، تقول لها إنكَ لستَ بخير.

وبعد لحظات من الصمت. كان دميان خلالها على وشك العودة لخزانة الحائط، تحدّث فيدي:

- أوف، انتابتْني نوبة ضيق، لأني فكّرتُ في ثانية أننا تجاوزْنا حاجزًا، وأننا نتكلّم بجدّيّة - قال.

- طيّب، جرائم كثيرة تبدأ هكذا، كمزحة – قالت -. والآن بعد أن حكيتُ لكَ موضوع الدبابير سترى كيف سيستحوذُ على رأسكَ.

- لا، الفكرة أيضًا واتتْني، لكن الأشياء لا تصبحُ واقعية حتّى نتحدّث بها مع أحد.

- اسمعْ، لا تبالغْ، أنا كنتُ أمزحُ. لا تتخيّلني أجمعُ الدبابير، لأقتلَ زوجتكَ. ما ينبغي أن تفعلَه هو أن تُرسلها إلى مصيبة.

- ثمّ؟

- ثمّ تبيع محلّ اللعب، ونفتح توكيلًا لماركة مشهورة.

- توكيلًا لأيّ ماركة؟

- لـ ستاربكس. هل تعرف كم يكلّفهم فنجان قهوة؟! وبكم يبيعونه؟!

- طيّب، انظري، الآن سننظّفُ المطبخَ قليلًا، ففي يومَيْن، غابتْ فيهما زوجتي، انظري كيف أصبح. وساعديني على تنفيض المُلاء التي امتلأتْ بفتافيت البيتزا.

- استحوذتْ عليكَ فكرة النظافة كمضادّ لفكرة قذرة بقَتْل زوجتكَ، ها ها.

حَدَسَ دميان أنهما تَرَكَا السريرَ، فبدأ في خطوة الهروب إلى خزانة الحائط، غير أنه أدركَ ضيقَ الوقت والضوضاء الزائدة عن اللازم التي قد يُثيرها، فظلّ ساكنًا.

- لا أجدُ لباسي الدّاخليّ - قالت باولا وهي قريبةٌ جدًا من الخزانة.

- أهذه مزحةٌ أخرى؟- اعترضَ فيدي.

- لا، بجدّ. ماذا فعلتَ به؟

- تقولين ماذا فعلتُ به؟

- أنتَ مَنْ أخلعتَهُ لي.

سادَ صمتٌ دلاليّ بأن فيدي كان يبحثُ عنه.

- لا تجنّنيني- قال -. رميتُه خارجَ السرير. لابد أنه هناك.

- سترى كيف ستعثرُ عليه لوثيا.

- الحمد لله أن عندها لباسًا داخليًا شبيهًا.

- كيف يكون عندها لباس داخليّ شبيهٌ، يا ابن القحبة، إن كنتَ أنتَ مَنْ أهديتَني اللباس الداخليّ الضائعَ؟ أم أنكَ تحبّ أن أستخدمَ ملابس داخلية شبيهةً بملابس زوجتكَ؟

تلجلجَ فيدي، ثمّ قال في النهاية:

- اشترتْه هي بعد أن أهديتُه لكِ. من محلّ ملابس داخلية بالمركز التجاري.

- أكيد؟

- أكيد، يا امرأة، كيف تفكّرين أني سأفعل شيئًا هكذا؟

فيما كانا يتناقشان، لابد أنهما كانا يبحثان عن اللباس الدّاخليّ، إذ إن صوتَيْهما كانا يأتيان، بالتناوب، من جانب لآخر.

- يصيبني الإحباط حين تَتَعَفْرَتُ الأشياء هكذا بشكل عَبَثي- قال فيدي.

- تَتَعَفْرَتُ؟ تقول، أنا لم أقلْ في حياتي تَتَعَفْرَتُ، الأصحّ أن يُقالَ تضيع. لماذا تقول تَتَعَفْرَتُ؟ يَتَعَفْرَتُ معناه أن يتحوَّل لمجنون.

- لا أعرف، أووف، الآن أختنق بسبب الدبابير واللباس الداخليّ. بالإضافة لمكالمتها التي وَتَّرَتْنِي.

- ركِّزْ فيّ، إذنْ. ركِّزْ في حالتي الجيّدة، وفي أن هذه المرآة ملأى بخدوشات.

تخيّل دميان أن المرأة كانت واقفة أمام باب الخزانة الرئيس، تستعرضُ نفسَها أمام المرآة. ثمّ سمع ضحكاتٍ، كأن فيدي قد اقتربَ منها من الخلف، وعانقها، ودغدغَها. بالفعل، بدآ بعد قليل في العرض الرياضيّ الذي أعادهما إلى السرير، ومرّة أخرى، إلى الإنهاك. وعقب الإنهاك، وحكمه بأن الصمت سادَ، لابد أنهما عادا للنوم من جديد. أرهفَ دميان السَّمْعَ، ليلتقطَ شخيرَ فيدي الرقيق الذي يعرفه كفاية، ثمّ عاد إلى مخبئه، ليستعيدَ اللباس الداخليّ، ووارب باب الخزانة الرئيس، وألقى به في الغرفة.

- أعتقدُ أنه ما كان يصحّ أن آخذَهُ - قال لإنياكي أوكان.

- ولماذ فعلتَ ذلك؟

- لا أعرفُ، أظنّها دفعة فيتشية.

لابد أن إلقاء اللباس الداخليّ سبَّب اضطرابًا في الجوّ، أيقظ فيدي.

- ماذا حَدَثَ؟- قال.

- ماذ حَدَثَ لماذا؟- سألت باولا مستيقظَة كذلك.

- لا أعرف، هل قلتِ أنتِ شيئًا؟

- أنا كنتُ نائمة بعمق، يا قلبي.

- لقد اتّفقنا على تنظيف المطبخ - قال فيدي.

- أوف، لا تكنْ مُوَسْوَسًا، غدًا أصحو مبكرة قليلاً، وأقوم به. متى تعود زوجتكَ؟

- ليس الآن.

لابد أن فيدي قد نهض من السرير، لأنه صرخ فجأةً:

- اللباس داخليّ!

- ماذا حَدَثَ الآن للباس داخليّ؟

- إنه هنا، انظري.

- لكننا نظرنا هنا ألف مرّة.

- هذا ما أقوله بالضبط.

- واحد منّا يريد أن يُجنِّنَ الآخر.

حين اختفيا في طريقهما للمطبخ، مرّ دميان لوبو من الخزانة ذات الثلاث ضلف إلى مغارته، وجرّاء الجهد الصغير المبذول، تصبّب عَرَقًا حتّى بدا له أن جسده يذوبُ فيه كقطعة صابون في الماء. وبعد أن خَلَعَ ملابسه، مُكتفيًا فقط باللباس، رَقدَ على ظهره، وتحسّس بيَدَيْه جسده وسط الظّلمة، مُتمهّلاً في كلّ ضلع كمُلحّن يعزف على آلة موسيقية.

- أبدو زاهدًا - حدّث نفسَهُ في غياب إنياكي أوكان.

ثمّ تحسّس لحيتَهُ الطويلةَ التي ذكَّرتْهُ بلحية روبنسون كروزو في رسومات كتاب قديم، كان في بيت أبَوَيْه. فكّر في نفسه كغريق، استقرّ به المطاف في خزانة، كما استقرّ روبنسون في جزيرة. فكّر أنه ربّما كان ضروريًا استخدام أحد حيطان الخزانة لتسجيل تواريخ، تشير لزمن غرقانه. حاول أن يحسبَ هذا الزمن، غير أن الأيّام التبستْ عليه حتّى بات ذلك مستحيلاً. لقد اختفى الزمن. كان يفكّر فيه كنوع من انعكاس خاضع لحياته الداخلية. حينئذ سمع صوت إنياكي أوكان يرنّ في رأسه. كان يقول له إنه قد استقرّ في الأبدية بطريقة ما.

- في الأبدية؟- سأل دميان مستغربًا.

- طيّب، في شكل من أشكال الأبدية الممكنة.

تأخّر فيدي والمَدعُوّة باولا في العودة لغرفة النوم، ربّما كانا يشاهدان التلفزيون. وقبل أن يدخلا السريرَ، في أثناء ما كانا يروحان ويجيئان من الحمّام للغرفة، بحسب تخمين دميان المَبني على تغيير مصدر الصوت المتبدّل باستمرار، سأل فيدي:

- وماذا يحدثُ مع ماريا؟

- أيّ ماريا؟

- أيّ ماريا ستكونُ؟ ابنتي.

- لا أفهمُكَ، ماذا يحدث لماريا؟

- أقول في حالة موت لوثيا.

- مرّة أخرى، الموضوع نفسه.

- اسمعي، الفكرةُ خطرتْ لكِ.

- لكنها كانت محضَ تدريب خيالي، لا تكنْ بقرنَيْن.

- إذنْ، كمحض تدريب خيالي، ماذا يحدث لماريا؟

- سأكون زوجة أبيها المثالية. فعلاقتي ممتازة بالمراهقات. بالإضافة لذلك، تبدو لي فتاةً رائعةً، وتلمسُ قلبي.

- لم أقلْ لكِ من قبلُ، لكنها تعاني من سوء تغذية.

- مثلي وأنا في سنّها.

- والدورة لم تأتِها بعد.

- ولم تأتِني حتّى السادسة عشرة، الأمر يتوقّف على عوامل بعيدة.

- هي تريدُ أن تُقنعَنا أنها جاءتْها، وتشتري الفوطَ الصّحّيّة، وتُبقّعها بالأحمر. ونحن نجاريها.

- لا تكنْ ساذجًا، هي مَنْ تُجاريكم.

ثمّ صَمَتَا لدقائق، استنتجَ دميان أنهما دَخلاَ السرير. حينئذ عادت المَدعُوّة باولا لفَتْح حديثٍ.

- منذ متى وأنتُم في هذا البيت؟- سألتْ.

- أقلّ من عام - قال فيدي -، لماذا؟

- لأن له رائحةً مميّزةً. لكلّ بيت رائحتُه، بحسب شخصية العائلة التي تعيش فيه.

- لا أعرف، لا ألحظُ شيئًا - قال فيدي.

- لأنكَ تشمّها كلّ يوم، مثل مَنْ يدخّن لا يلحظُ رائحةَ الدخان.

- وما رائحةُ البيت؟

- لا أعرفُ، مثل لبن حامض.

- زبادي؟

- قلتُ "لبن حامض".

- صدى "لبن حامض" سيّئ.

- لا تنزعجْ، الرائحة خفيفة. تذكّرني بإحدى روائح الطفولة، لكنْ، لم أحدِّدها بالضبط. تنفَّسْ بعمق؟ ألا تلاحظُ شيئًا؟

- الحقيقة لا.

فكّر دميان أن الرائحة التي تشير إليها المَدعُوّة باولا هي رائحةُ انسلاخ، انسلاخ الشبح، عملية تتمّ عبر التّحوّل من الماديّة إلى التّجرّد، وأراد أن يقولَ ذلك لأوكان، غير أنه لم يظهرْ. على الجانب الآخر، كان فيدي قد فَتَحَ الراديو، حيث كانوا يذيعون البرنامجَ الرياضيَّ الليليَّ المعتادَ.

فَرَدَ دميان جَسَدَهُ، لينامَ، وعند إغماض عينَيْه، خطرتْ بباله مجموعةُ

صور، اكتشفَهَا في الإنترنت حين كان يبحثُ عن الأسباب الأكثر شيوعًا لتأخّر الدورة الشهرية. في ويكيبيديا، كانوا يُسمّون قنوات فالوب بالقنوات الرحمية أيضًا. ولأن الفارقَ بين كلمة trompas "قنوات" وtrampas "فخاخ" صغير جدًا، قرأها دميان في البداية "فخاخ رحمية"، ما سبَّبَ له لحظاتٍ من الاضطراب. ثمّ تأمّل في المبايض، حيث تتكوّن البويضاتُ، ومنها تبدأ القناة التي تصلُهُ للرحم. ولقدرته المحدودة على الرؤية، إذ كان على وشك النوم، رأى داخل رأسه رسمةَ جهاز الولادة، وتخيّل سريانَ البويضة عبر القناة، وتوقُّفها في منتصفه بين أربع وعشرين وثمان وأربعين ساعة، في انتظار الحيوان المنوي. فإن تأخّر عن موعده، تقدّمتْ حتّى الرحم، وسَقَطَتْ فيه، لتخرجَ بعد ذلك من خلال المهبل. سقوط البويضة سبَّبَ له انتفاضةً، كأنه هو مَنْ وَقَعَ غير أنه كان نائمًا.

-٦-

في اليوم التالي، عند انصراف فيدي والمَدعُوّة باولا لمحلّ اللعب، خَرَجَ دميان من مغارته، رغم أنه استمرّ فيها بمعنى ما. لقد غدا موجودًا في الأماكن التي عَبَرَ بها، كأنه بَلَغَ درجةً من البقاء في كلّ مكان في الوقت نفسه. الآن يتجوّل في الممرّ رافعًا بنطلونَهُ الرياضيَّ الواسعَ كلّما سَقَطَ منه، مع أنه ضَيَّقه لأقصى درجة. جَلَسَ على مائدة المطبخ الملأى بالأطباق المتّسخة وبقايا الطعام، إذ إن فيدي والمرأة، رغم ما سمعه منهما في الليلة السابقة، لم يُنظّفاه، ولعبَ لعدّة دقائق بفكرة أنه في الواقع، ورغم كونه هنا، لا يزال هناك في الخزانة. لقد اكتسب النومُ واليقظةُ النسيجَ نفسَهُ. ولم يعدْ مُتيقّنًا إن كان نائمًا أم متيقّظًا، إن كان داخل الثقب أم خارجه.

- هل هذا يحدث؟- وجّه سؤالَه لإنياكي واثقًا من أن السؤال سيصلُهُ حيث أراد أن يكون الصُّحُفي الهجين.

- هذا يبدأ في الحدوث - أجابه أوكان في الحال.

لم يظهر البلاتوه التلفزيوني، ولا بلغ رؤية وجه وعينَيّ المذيع الصفراوَيْن، غير أن صوته بَزَغَ عاليًا وواضحًا من مكان ما برأسه.

- ما الذي بدأ في الحدوث؟- سأل دميان.

- لقد استمعتُ لطريقة تصفية فيدي: الدبابير.

- وهل تعطيني أوامر؟- سأل دميان.

- تَلَقَّ العبارةَ، كما تشاءُ، لكنْ، تصرَّفْ - ردّ الصوت.

- أوكان، أنا مَنْ خلقتُكَ - قال له دميان.

- وأنا، حتّى لا أبقى مَدينًا لكَ بشيء، أُعيدُ خَلْقَكَ - ردّ المذيع.

غرق دميان في التأمّل لعدّة دقائق. لم يفهم جيّدًا ماذا يحدثُ. لقد ذكّره الموقف بفقرة تلفزيونية، شاهدَها وهو طفلٌ: ظَهَرَ حاوٍ تقليديّ على الشاشة، وتكلّم من بطنه وبيده دمية عادية. الغريب حَدَثَ حين اكتشفَ أن الدمية كانت الحاوي، وأن الحاوي كان الدمية.

شربَ فنجانَ شاي بقليل من اللبن، وراح لغرفة ماريا. فَتَحَ الكمبيوتر، ودَخَلَ منتدى الأشباح، وهناك لم يجدْ أيّ خبر عن لوثيا، لكنه وَجَدَ مشتركين كثيرين، يطالبون بظهوره. أحدهم كان يسأل كيف يمكن التّحقّق من وجود شبح.

- إن شممتَ رائحةً خفيفةً لِلَبَنٍ حامضٍ- كَتَبَ دميان.

ثمّ خَرَجَ من المنتدى، وكَتَبَ في الباحث السؤالَ التالي:

- ماذا تأكلُ الدبابيرُ؟

عرف أنها تحبّ السّكّر والبروتينات، رغم أنها تأكل كلّ شيء، من هنا يأتي سَكَنها المعتاد في أكوام الروث. المقال كان يشرح كيف يمكن عمل فخّ للدبّور من زجاجة بلاستيكية حجم لترَيْن. الفخّ عبارة عن قصّ رقبة الزجاجة، ووَضْعها بالمقلوب في شكل قُمع بعد وَضْع مادّة الإغراء في

القعر. ستدخل الدبابير الزجاجة مدفوعة بحاسّة الشّمّ، غير أنها لن تعثرَ على مخرج. كان الأمر بسيطًا جدًا، فَبحَثَ أيضًا إن كانت قرصةُ دبّور واحد يمكن أن تقتلَ شخصًا حسّاسًا، والإجابة كانت نعم. ففي خلال ساعة، تلتهبُ أذناه، حَنْجَرَتُهُ، لسانُهُ، شفتاهُ، وزمّارتُهُ، وتظهرُ صعوباتٌ في التّنفّس، وينخفض الضغط بمعدّل خطير. وكانت هذه الأعراض، من بين أخرى، أعراضَ صدمة الحساسية.

مَسَحَ سجلَّ البحث بحيطة خاصّة هذه المرّة، ثمّ أطفأ الكمبيوتر، واتّجه للمرأب، هناك خزّنت العائلة، لحسن الطالع، كمّيّة كبيرة من المياه المعدنية، كانت تفضّلها على ماء الحنفية. أخذ خمس زجاجات، وعاد بها إلى المطبخ، وفرّغها في الحوض. ثمّ، مُتّبعًا التعليمات، صَنَعَ عدّة فخاخ، ووَضَعَ كمادّة إغراء قطعًا من الخامون(*) ماركة يورك، وَجَدَها في الثلاجة، وخَرَجَ بألف حيطة (بسبب الجيران، بسبب الستالايت) للحديقة الخلفية، وهناك تَرَكَ الفخاخَ في أماكن، يمكنُ مشاهدتها من الشّبّاك. تأخّرت الدبابير أكثر ممّا ظنّ، وظَهَرَتْ أوّلًا واحدًا تلو الآخر، ثمّ جاءتْ في مثنى وثلاث. وفي نصف ساعة، تكوّنت سحابة صغيرة، تحومُ حول الزجاجات البلاستيكية بنَهَم. أحد الدبابير استراح على حافة قُمع زجاجة، وتتبع حاسة الشّمّ حتّى وَصَلَ لقطعة اليورك. وخلال ساعات الصباح، سَقَطَ ما يقرب من ثلاثين دبّورًا في الزجاجات الخمس.

المشكلة الآن في نَقْلها لسلّة القمامة بالمطبخ، كما كان هدفه. بَحَثَ في الإنترنت من جديد، وتأكّد من أن الدخان يصيبها بالدوخان، ومن ثمّ يسهل الإمساك بها بورقة ألومنيوم وورق جرائد مكوّر. كان يكفي أن يصنعَ

*) أكلة إسبانية شهيرة، تُشبهُ البسطرمة، وتُصنَع من لحم الخنزير (م).

من ورقة الألومنيوم أنبوبًا مغلقًا من جانب، ثمّ يحشوها بكرات من ورق الجرائد. حين قرّب لهيب الولاعة من جزء الأنبوب المغلَق، سخن سلولوز الورقة، ودخّن دخانًا كثيفًا جدًا.

حَدَثَ كلّ شيء في بالوعة المطبخ، ليسهل التّخلّص من النثائر. وكما قد دَرَسَ في المقال المنشور بالإنترنت، استحال أنبوب الألومنيوم ماسورةَ دخان، وَضَعَ فوقها، بشكل مقلوب، الزجاجات التي كانت الدبابير لا تزال محبوسة بها. جاء ردّ فعْل الحشرات شبه فوري. في البداية، كفّت عن السير والضرب بأجنحتها، ثمّ سَقَطَتْ في الحال، كميّتة، حول القُمع. بإتمام العملية، رماها في سلّة القمامة، حيث ألقى أيضًا قطعة سَمَك شبه مُتحلّلة منذ عدّة أيّام في الثلاجة، غير أنه ألقى قطعةً صغيرة منها على الأرض، كأنها وَقَعَتْ من أحد دون قَصْد. ثمّ غطّى السّلّةَ، وألصقَ أذنه بحائطه، وظلّ منتبهًا لعدّة دقائق، وقلبه في حَنْجَرَته، حتّى استمع لصخب، أثاره طيران الحشرات، إذ على عكس الظاهر كانت نائمة، وليست ميّتة.

الصوت أمره بأن يأخذ وقته، لينظّف بقايا الورق المحروق حتّى لا يُخلّف أثرًا وراءه، وهكذا فعل، متذكّرًا الدقّة التي كان يعملُ بها حين كان يعملُ في الصيانة. محا الرماد تمامًا، وكوّر ورق الألومنيوم المستخدَم في العملية، وألقى به في المرحاض. اكتفى بشَدّ السيفون مرّة واحدة، ليأخذَه الماءُ عبر الأنابيب.

بقيتْ مشكلةُ الزجاجات، ولم يجدْ لها حلًا آخر غير تقطيعها في أجزاء صغيرة، ولفّها في كيس قمامة، ثمّ دَسَّهَا في الخزانة التي صارت عرينَهُ. في النهاية، هوّى المطبخ لمَحْوِ أيّ أثر للدخان، وترك الشّبّاك مفتوحًا، ليبرّر دخولَ الحشرات. ثمّ عاد إلى مخبئه، المخبأ الذي بات يواجهُ صعوبةً في الخروج منه، ويتضاءلُ كَسَلُهُ في كلّ مرّة يعودُ إليه.

راقدًا على السرير البديل المُكوَّن من بابيَ خزانة الحائط، وبيَدَيْن مستريحَتَيْن على بطنه، وعينينْ مغمضَتَيْن، حاول أن يستحضرَ، دون تحقيق ذلك، بلاتوه أوكان القديم. الأمر أثار فيه شعورًا بالاستغراب. حاولَ حينئذ استحضارَ وجه أبيه وأخته الصينية، فلم يحضرا على ذهنه، فسأل إنياكي أوكان، ذهنيًا، إن كان هو السبب في هذا البَتْر.

- هي مسألة اقتصادية - أجابه أوكان على الفور -. ضروريّ أن تدّخر طاقة للفترة القادمة.

- أيّ فترة قادمة؟- سأل دميان.

- الفترة التي استدعيتَها - جزم الصوت.

في مقابل صعوبةِ تركيبِ أشياءَ ذهنيةٍ محدّدةٍ، شُحِذَت بعض حواسّه لحدود، لا يمكن تصوُّرها. كان بوسعه سماع جرس هاتف ببيت الجيران، أو شمّ أيّ جسيمات عالقة، كما كان بقدرته التّجوّل في البيت بعينَيْن مغمضَتَيْن، مُتّبعًا حاسّة اللّمْس والشّمّ فحسب. هذه الطاقة حرّكت فيه الثقة ونوعًا من النشوة الرائقة، مَنحَتَاه مكانًا في العالم، كان حتّى تلك اللحظة يفتقدُهُ.

عند الظهيرة، سمع دميان صخبَ باب المرأب المألوف يرتفعُ للسقف، فَجَلَسَ في وَضْع اليقظة. وبعينَيْن مفتوحَتَيْن في عتمة الخزانة، تابع حركات السّيّارة الأولى، وسمع في الحال ضجيج بابيَ السّيّارة الأماميَّيْن يُفتَحَان ويُغلَقَان. عاد الاثنان، فيدي والمَدْعُوّة باولا، ورغم المسافة ميّز صوتَيْهما. ركّز في تجوّلهما مُحرّكاً رأسه بالتناوب من جانب لآخر، بحركات عصفور مُتوتّرة، بحثًا عن الوَضْع الأفضل للتّصنّت. كانا يصعدان الآن الأربع درجات

التي تؤدّي من المرأب لباب البيت، والآن يسمعُ صخبَ الكالون، والآن دخول الجَسَدَيْن للممرّ... كان السَّمْع، بالدرجة التي يؤدّيه بها، يُشبهُ الرؤية.

توجّه الاثنان المتأجّجان بالرغبة لغرفة النوم، وهناك بدأ التبادلَ اللفظيَّ لعبارات الإثارة الجنسية التي قاطعَها فيدي بسؤال:

- من أين يأتي هذا الطاعون؟

- ربّما من الشبح - مَزَحَتْ باولا.

- رائحة الأشباح ليست رائحةَ موتى - قال الرجل -، لابد أنها تأتي من المطبخ، ففي النهاية، تركناه دون تنظيف. انتظري لحظة.

- لا تتأخّرْ- قالتْ باولا.

ابتعدتْ خطواتُ الرجل في الممرّ. ثمّ جاءتْ لحظة حدث للواقع، فيها انقطاع وجيز، مثل انقطاع النور، وعودته في ثوانٍ. بين هذَيْن القوسَيْن، تخيّل دميان أن فيدي اقترب من سلّة القمامة بتلقائية، ومال نحو الكيس، وبَحَثَ في حوافّه عن رباط إغلاقه المُموّه. ذلك كلّه دون أن يشعرَ إلى الآن بوجود سِرْبٍ من الدبابير بداخله، وأنها، بحسب المتوقّع، ستشعر بأن حركاتِ الرجل هجومٌ عليها. أُغلِق القوسُ، ثمّ جاءتْ صرخاتُ فيدي، المنبعثة أوّلًا من المطبخ، ثمّ من الممرّ، لتهزّ أركانَ البيت. وعند دخوله غرفة النوم، حَسَبَ دميان أنه لابد يعاني من عدّة قرصات في وجهه، وربّما بعضُها في رقبته، وبعضها، بلا شكّ، في يَدَيْه. لم تكنْ آهاته آهات مَنْ أوشك أن يُنفَّذ فيه حكم الإعدام، بل آهات، وكانت بالفعل، مَنْ يتوسّل ألا يطلقوا عليه طلقة الموت الرحيم.

- دبابير، دبابير!- أخبر باولا بيأس.

- الترياق!- صرخْتُ.

- قرصات كثيرة جدًا، وتشويني! اتّصلي بـ ١١٢!

غمّض دميان عينَيْه، ليركّز طاقاتِهِ كلَّها في الإنصات، وحينئذ، بشكل مفاجئ، "رأى" بسَمْعِهِ كيف كان فيدي يتلوّى في سريره، وينفضُ يَدَيْه في الهواء، بينما المَدْعُوّة باولا تركضُ من جانب لآخر بالبيت، عاجزَة عن اتّخاذ أيّ قرار. "رأى" كذلك الحيرة والأسئلة التي تعبر برأس المرأة: كيف يمكن أن تحدثَ لفيدي الحادثة التي فكّرتْ فيها لـ لوثيا؟ لو اكتشف البوليسُ في الحالة أيّ أدلّة جنائية، هل ستكون هي أوّل مُشتبه فيه؟ هل ينبغي أن تهربَ؟ لكنْ، ألا يزيدُ ذلك الاشتباهَ أكثر؟

ذلك كلّه كان يحدثُ في فيمتو ثانية، كانت تتمدّد كأن الزمن تحوّل لمادّة مطّاطية. وبينما كانت باولا تُحدِّث نفسَها وهي تركضُ من جانب لآخر بالبيت، كان سِرْبُ الدبابير الصغير يطوّق جَسَدَ فيدي الذي كان يتقهقرُ على السرير محاولًا أن يغطّي جسدَهُ بالمُلاء.

- هل تسمعُهُ؟- سأل الصوت.

- أراه بسَمْعي- أجاب دميان مذهولًا من هذه القدرة التي اكتسبَهَا حديثًا، والتي يظنّ أنها نتاج للصيام، وبلا شكّ من خصائص الكائنات الشبحية.

بالفعل، كان يتمكّن من تمييز طيران كلّ دبّور، ووَضْعِهِ ذهنيًا في مكانه. كانت تقرصُ مرّة وراء مرّة، إذ كانت وخزاتها، على عكس النحل،

سلسة وسهلة الدخول في اللحم والخروج منه. وذروة القرصات، بعد أن بلغتْ قمّتها، تمدّدتْ بطريقةٍ غريبةٍ، رغم أنها في النهاية بدأتْ في الهبوط. والدبابير، التي تصرّفتْ في أثناء الهجوم كأنها فَرْدٌ واحدٌ، بدأتْ في التناثر، وهو ما "رآه" دميان أيضًا بسَمْعه. ثمّ انطلقتْ في البيت ككرة نيران اصطناعية، لتستحيل إلى زفيرات صغيرة، توزّعتْ في الحال في أرجاء البيت.

جاءتْ لحظة، لم يُسمَعْ فيها إلا أنفاس فيدي المحتضرة. ثمّ فُتِح قوسان آخران عابران، بعدها سمع سارينة الإسعاف، أو المطافي، وربّما البوليس أيضًا، كذلك ذهاب وإياب عشرات الأقدام التي ترسم خطوطًا ضبابية على أرضية البيت. مُنِح لدميان مجدّدًا "أن يرى" بسَمْعه جيشًا من الجِزَم والأحذيةِ الرياضيةِ التي تجوبُ المنزلَ بضجيج، كجيشٍ مُرتبكٍ. رأى وسمع في الوقت نفسه شروحاتِ باولا المُتسرّعةَ والمتقطّعةَ، بسبب البكاء، لكن الأكثرَ منه بسبب نَفَسِهَا المرتجفِ والمقطوعِ، فيمنعها من استكمال الجملة.

- يجب أن يستقرّ جَسَدُهُ - قال رجل.

- يبدو لي أن الاستقرارَ هنا صعبٌ - ردّتْ امرأةٌ.

كانا يتحدّثان وهما يتّجهان لباب غرفة النوم، وينقلان فيدي، بلا شكّ، على نقّالة، ليضعاه في سيّارة إسعاف مجهّزة، تخيّلَ دميان أنها تقف على باب البيت.

- إنه البلاغ الثالث بسبب الدبابير، ولم يبدأ الصيفُ بعد - قال مَنْ كان من المؤكّد أنه رجل إطفاء.

- عام الدبابير، عام الثلوج والعواصف الثلجية - قال شخصٌ قريبٌ جدًا من مخبأ دميان.

- كشفتُ على الأركان كلّها، ولم أجد عشًّا واحدًا - قال ثالثٌ يقف عند باب الغرفة ، لكن شبّاك المطبخ كان مفتوحًا، وهناك بقايا طعام في الأركان كلّها. كيس القمامة كان في الأرض بخرائه المتناثر. أغلب الظنّ أن الدبابير كانت تأكلُ قطعةَ السمك شبه المتعفّنة بالكيس عندما حرّكه الرجلُ المسكينُ، ليرميه بالخارج.

فيما كان دميان، المُعجَب بكتيّبات الاستخدام، يرى بانبهار أن التطبيقَ العمليَّ، مرّة أخرى، يتطابق مع النظرية.

-٧-

بعد قليل من حملهم لجثّة فيدي، واختفاء المَدْعُوّة باولا، وربّما رجال الإطفاء، اقتحمتْ مجموعة أخرى من المِهنيّين الجزءَ الأقربَ لمغارة دميان بالبيت. ميّز أربعة أصوات، اثنان منها مذكّر، واثنان مؤنّث. سمعهم يروحون ويجيئون من جانب لآخر، يحرّكون الأثاثات، يفتحون الخزانة. كانوا يُوجّهون تعليمات، أو يتبادلون تعليقات حول حالة البيت. في النهاية، دَخَلَ غرفة النوم الرئيسة مَنْ كان يبدو أنه رئيسُ الفريق، وبصحبته إحدى المرأتَيْن. فَتَحَ الرجلُ الخزانة الخشبيّة المختبئ خلفها دميان، وحرّك الشمّاعات، فيما يقول:

- أوف، ليس ضروريًا أن نمسحَ المكانَ. شبّاكٌ مفتوحٌ، سلّةُ قمامة مغلقة بإهمال، وبداخلها سمكٌ متعفّنٌ، ورجلٌ ساذجٌ عنده حساسية، يلعب بذيله مع عشيقة في غياب زوجته التي راحتْ لتزورَ أمّها المريضة. يا لهما من وسخَيْن! انظري ما خلّفاه وراءهما في الغرفة، غارقة في اللبن.

رضخت المرأةُ بطريقة ميكانيكية، كأنها أدركتْ شيئًا، لم يستطعْ دميان توقّعه، في الوقت نفسه، كان الرئيسُ المفترَضُ يُعيدُ غَلْق الخزانة، ويبتعدُ في طريق الممرّ.

- تكلّمنا مع زوجة المصاب بالحساسية، وهي في طريق العودة - أعلمتْه المرأة الآن -. إن لم تكنْ هناك أسباب لتشميع البيت، ستصلُ هي هذه

الليلة أو غدًا، لكنْ، انظر بماذا ستصطدمُ، المسكينة. ساعدني على الأقلّ، على شدّ المُلاء قليلاً.

- هل أنتِ مجنونة؟ هيّا، هيّا، لا يزال أمامي كتابة التقرير، ولديّ اجتماع في مدرسة الأولاد.

في دقائق، اختفى الأربعة، وساد الصمتُ في البيت. وبعد أن مَكَثَ نصف ساعة إضافية لأسباب تأمينية، خَرَجَ دميان من الثقب، وجابَ البيت، وقد انتهى ذهنيًا من حساب العواقب. كانت الفوضى قد تضاعفتْ بدخول البوليس ورجال الإسعاف، لكنه حَسَبَ أنه يتمتّع على الأقلّ بأربع أو خمس ساعات، وربّما أكثر، قبل أن تحضرَ لوثيا وماريا.

قرّر بدءَ النظافة بالمطبخ، دون أيّ ضغوط. لقد فَقَدَ التّعجّل منذ زمن، لكنّ ذكراه بقيتْ مثل كيلو غرامات الوزن التي راحتْ عبر مصرف غير مَرئي بجسده. شبح يتمتّع بكلّ وقت العالم، حدَّث نفسه، بينما كان يشرع في جَمْع الأواني المنثورة من المائدة وكاونتر المطبخ. كلمة عالم ذكّرتْه بعنوان أغنيّة، كانت أمّه تحبّها، عالم غريب، فبدأ يُدندنها، بينما يضع الأواني في غسّالة الأطباق.

العالم، حتّى دون أن يجدَ ما يقارنه به، كان بالفعل في مكان غريب. وكان لا يزال كذلك، لأن هذه طبيعته، لكن غرابته تضاءلتْ قليلاً منذ عثر دميان على مكانه فيه. أن يكون مكانه خزانة، يشقُّ الحائطَ، مختبئًا خلف خزانة أخرى من الخشب، كان يعطي للوَضْع طابعًا مُلفِتًا من وجهة نظر بيولوجية صرف. فكّر بابتسامة أنه استحال نوعًا من العنكبوت الذي يسيطر على حركات الكون، مَحميًا بخيوطه، ومن مكان لا يلتفتُ إليه أحد.

بعد أن شغّل غسّالةَ الأطباق، استعدَّ ليغسل على يده أوانٍ، لا تسعُها، ودون أن يتوقّف عن الدندنة. وكان لحنُ الأغنيّة تحوّل لترتيل، يساعدُه على التفكير. وبسبب الظروف، لم يكنْ ممكنًا تجاهلُ احتمالية أن يأتيَ للبيت فجأةً أيّ قريب، أو صديق للوثيا، ليُرتّب الأمور قبل وصولها مع ماريا. لكن ذلك لم يكن ممكنًا. لابد أن لوثيا ستثقُ فيه، في القائد الشبح، فربّما كانت تعرف، أو تشتبهُ، على الأقلّ، في أن موتَ فيدي عملاً من أعماله، وستتركُهُ يُرتّب الأمور.

بالفعل، توقّف عدّة ثوانٍ، غمّضَ عينَيْه، وبالإسفنجة في يده اليمنى، والطاسة في يده اليسرى، تسلّل ذهنيًا لرأس لوثيا بطريقة الهاكر نفسه الذي يخترق كمبيوتر غريبًا. بدا له أنها، داخل حزنها لما حَدَثَ، تمتنّ له، لأنه حرَّرها من زوجها. وقبل أن تحسَّ بأنها مُخترَقَة، خَرَجَ دميان من رأسها بحيطته عند الخروج من الخزانة، مُسجّلاً الطريق التي استخدمَهَا في الدخول. تذكّر سيرخيو أوكان وإنياكي جابيلوندو، كذلك الشهرة شبه المُبتَذَلَة التي مَنَحَهَا له كلّ واحد منهما، وفكّر في السُّمعة التي يتمتّع بها الآن كـ القائد الشبح. صيتٌ لا يزال المستفيد منه غائبًا. ربّما يكون الرّبّ أشهر مَنْ في الكون دون أن يراه أحد، باستثناء بعض المختلّين. هذه كانت السلطة، القدرة على التّحكّم من الظّلّ.

بعد أن رتّب المطبخَ، وعدّل أثاثَ الصالة، مَسَحَ وكَنَسَ الممرّ بالمكنسة الكهربائية. بقية البيت كان نظيفًا، لأنه لم يُستخدَم، هكذا لم يتبقّ إلا غرفة النوم الرئيسة وحمّامها. وبدون فَتْح النور حتّى لا يلفتَ انتباه الجيران لوجوده، ورغم حلول الليل، سَحَبَ المُلاء المتّسخات وأكياسَ المخدّات، ووَضَعَهَا في الغسّالة مع ملابسه الداخلية وقمصان فيدي التي كانت

مَرمية في كلّ مكان. ومرتديًا القفاز البلاستيكي، مَسَحَ الحوضَ والمرحاضَ والمغطس، ثمّ فَرَشَ المُلاء النظيفات على السرير، ومرّرَ المكنسةَ الكهربائيةَ على الموكيت، ووَقَفَ لثوانٍ على الباب، ليُلاحظَ النتيجةَ على ضوء خافت، يدخلُ من النافذة، ويأتي من عمود نور عمومي بالحيّ. كلّ شيء صار مرتّبًا، ولم يدخلْ منتصف الليل بعدُ. فكّر أن لوثيا وماريا سينامان في الغالب بالخارج، في بيت أحد الأقارب أو في فندق، وأنهما لن يظهرا حتّى اليوم التالي.

عاد للمطبخ، أخذ إصبعَ موزٍ من الثلاجة، وراح يأكلُه في الصالة أمام التلفزيون، مع أنه لم يتجرّأ على فَتْحه. برجوعه لغرفة النوم، اضطجع على ظهره على السرير، في الجانب الذي تنامُ فيه لوثيا، وفتَحَ الراديو، وانتظر الأخبار. بعد قليل، وَصَلَ خبر فيدي، حيث يستريح جَسَدُهُ في المشرحة في انتظار تشريح الجثّة. المذيعةُ حذّرتْ أصحابَ الحساسية وجمهور المستمعين عمومًا من انتشار الدبابير هذا العام أكثر من المعتاد نظرًا لمناخ هذا الشتاء، ثمّ أجرتْ حوارًا قصيرًا مع أحد رجال الإسعاف الذي نَصَحَ بكيفية التعامل مع أعشاش الدبابير.

حَسَبَ دميان أنهم لن يُشرِّحوا الجثّة حتّى اليوم التالي، ولن يدفنوه أو يحرقوا جثّته إلا بعد مرور أربع وعشرين ساعة أخرى. أغلقَ الراديو، وجلس، مَسَح المرتبةَ بيده، وتساءل إن كان استحمامُهُ الآن يخالفُ الحيطة. على أيّ حال، قرّر أن يغامرَ. بعد الدّشّ قصّر لحية الغريق الطويلة جدًا أوّلًا، ثمّ حلقَهَا، وتخلَّص من الشَّعْر في المرحاض. الوجه الذي ظَهَرَ في المرآة بعد إزالة اللحية كان وجه رجل مجهول، تعاطف معه في الحال.

- ستكون علاقتُنا على خير ما يرام - قال له.

ثمّ تبوّل، وراح يفتحُ بابَ الخزانة الرئيس، أبعدَ الشمّاعات عن طريقه، ودَخَلَ عبر الباب السِّرّيّ إلى عرينه. اضطجعَ في وَضْع الجنين، وتخيّل أنه لم يُولَد بعد، وأنه الآن داخل رحم أمّه برأسه للأسفل، كأن الحَدَثَ السعيدَ أوشك على الحدوث. "الحَدَث السعيد"، كرّر العبارة لنفسه.

-٨-

في منتصف صباح اليوم التالي، وَصَلَت لوثيا وطفلتُها للبيت، وبصحبتهما أمّ لوثيا التي شَغَلَتْ غرفة الضيوف. افترضَ دميان أنهنّ قضينَ الليلة الفائتة في فندق أو في منزل أحد الأقارب. سمعهنّ يتجوّلنَ في البيت صامتاتٍ أو متحدِّثاتٍ بصوت خفيض، كأنهنّ في مصلّى نحيب حول جثّة، رغم أن لا أحدَ ينتحب هنا، كما فكّر دميان. كانت أمّ لوثيا ترفع صوتها من آن لآخر، لتشيرَ إلى أمر من أمور الإجراءات العملية، غير أنها كانت تخفضُهُ في الحال متقهقرةً أمام الجوّ الجنائزي السائد. سمعَهَا الشبحُ وهي تمتدحُ نظافةَ البيت وترتيبَهُ، رغم الأخبار التي تلقّينها من رجال الإسعاف، ما ردّت عليه لوثيا بأن زميلاتها في العمل تكفّلنَ بكلّ شيء.

- أيّ زميلات؟- سألت الطفلة.

- لا تشغلي بالكِ، لا تعرفينهنّ - قالت لوثيا بصوت قاطع.

بعد برهة، دَخَلَت لوثيا وأمّها غرفة النوم الرئيسة، وحَدَسَ دميان أنهما توقّفتا أمام الخزانة.

- خزانة أبويّ!- صاحت الأمّ.

- كما حكيتُ لكِ، بالضبط- قالت لوثيا.

- هل أنتِ متأكّدة أنها الخزانة نفسها؟

- نعم، انظري، اسمي واسم خورخي في ضلْعه، بالعلامات التي تشير لقامَتَيْنا.

- ألا ترين أنه عتيق قليلاً، يا ابنتي؟

- لكنه يروقُ لي، يا ماما.

أحسّ دميان بطريقة فَتْح إحدى المرأتَيْن، أغلب الظّنّ الأمّ، الباب الرئيس، ثمّ تطلّعتْ إلى داخله.

- رائحته غريبة - قالتْ.

- بسبب معطّر اشتراه فيدي، لكني أخرجتُه من هنا.

- والشبح؟- سألت الأمّ، بينما رسمتْ ابتسامةً، استطاع دميان أن يشعرَ بها من ثقبه.

- أيّ شبح؟- سألتْ لوثيا.

- مَن جاء مع الخزانة.

- آه، هذا، إنها تخاريف. في البداية، ذكّرني بذكريات كثيرة حين عشتُ في بيت جدّي، فاستحضرتُها.

أُغلِق باب الخزانة مرّة أخرى، وخَرَجَت البنت وأمّها من الغرفة، ومرّتا بالممرّ حتّى وَصَلَتا لعُمق البيت.

سار بقية اليوم بسلاسة، مع أن الهاتف وجرس باب الشارع لم يكفّا عن الرنين. مكالماتُ عزاء، فكّر دميان، والزيارات المعتادة في هذه الظروف

من أجل مواساة الأرملة واليتيمة. على أيّ حال، ذلك كلّه كان يحدث في جوّ من السكينة، بلغتْ أركانَ البيت كلّه، بما فيها مأوى الشبح.

ومبكّرًا اضطجعتْ لوثيا. أنصَتَ دميان لحركاتها كلّها منذ دَخَلَت الغرفةَ، وأغلقت البابَ. وفيما كان يتصنّتُ على حركاتها، كان يُترجمها لشكل الرؤية الداخلية الجديدة التي طوّرها عقله بتلقائية. رآها، إذنْ، تجلسُ عند قَدَمَي السرير، أمام باب الخزانة الرئيس، واستمرّت هناك مستكينة لعدّة دقائق، تنظرُ لنفسها في مرآته التي خلّفتْ فيها أكسدةُ الزئبق بقعاتٍ سوداء. ثمّ رآها تتّجه للحمّام، ورأى كيف أُغلِق بابه، ورآها تقعد على المرحاض، بنظرة تائهة في نقطة ما من الأفق. رأى كيف تغسلُ أسنانَها، وربّما تزيلُ مكياجها، وكيف تتعرّى تاركّة ملابسها على البيديه، ورأى كيف لمّت شعرها حتّى لا تُبلّله، وأخذت دشًّا سريعًا. رآها تعودُ لغرفتها، ترفعُ غطاء السرير، وتدسُّ نفسها داخله، وتُطفِئُ النور.

استمعَ حينئذ لأنفاسِهَا، وأدركَ أنها كانت مُتلهِّفةً للنوم. فكّر دميان في فيدي الذي سيتسلمون جثّته من المشرحة في اليوم التالي. ربّما انتهوا من تشريح الجثّة دون أن يجدوا شيئًا إلا سمّ الدبابير. لكنْ، هل كانت ذكرى فيدي تستحقّ عدّة أيّام من الهدنة؟ لا، بالطبع.

مع ذلك، انتظر عدّة دقائق أخرى، وسمح لتعبر برأسه، كما يقولون إنها تعبر برأس الغريق، مشاهد تلخّص حياته السابقة، وبدأ في ميلاد ذاته من ذاته. فَتَحَ الباب المزيّف، وعَبَرَ من خلاله للخزانة الخشبية، فاتحًا لنفسه طريقًا بين فساتين لوثيا، كأنها أغشية عضوية، أغشية مخاطية، يلزم العبور بها في مسيرته حتّى يبلغ حياة الشبح الواقعي التي ينتظرها. حين فَتَحَ باب الخزانة الرئيس، ارتجفتْ لوثيا. كانت نائمةً على جنبها، بساقَيْن

مضمومَتَيْن. قال دميان: إنه أنا، لا تقلقي، ثمّ قَلَعَ ملابسَهُ الرياضية، ودَخَلَ السرير. عانقَهَا من ظهرها، ممتزجًا بها امتزاج اللحن بالكلمات. كانت أسمنَ ممّا تخيّل، وكانت أكثر رقّة أيضًا. حينئذ سمع الصوت داخل رأسه:

- لقد وَصَلْتَ - قال له.

- إلى أين؟- سألَ دميان.

- إلى حيث أردتَ - أجابَهُ الصوت.

وكان هذا كلّ شيء.

عن المترجم

أحمد عبد اللطيف (القاهرة- ١٩٧٨) روائيٌّ ومترجمٌ مصريٌّ، حَصَلَ على الليسانس في اللغة الإسبانية وآدابها من كُلِّيّة اللغات والترجمة، ثمّ دَرَسَ بمدرسة طليطلة للمترجمين بمدينة توليدو الإسبانية، وحَصَلَ على الماجيستير في الأدب المقارن من جامعة أوتونوما دي مدريد بإسبانيا. صَدَرَ له خمسُ روايات، وفاز بجائزة الدولة التشجيعية عن روايته الأولى "صانع المفاتيح"، والمركز الأوّل بجائزة مؤسّسة ساويرس الثقافية عن روايته الثالثة "كتاب النحات".

ترجم من الإسبانية للعربية ما يربو على عشرين كتابًا، ما بين رواية ومسرحية ومجموعات قصصية وكُتُب نقدية، وفاز بجائزة المركز القومي للترجمة للشباب عام ٢٠١٢ عن ترجمته لرواية "الكون في راحة اليد" للروائية النيكاراجوائية جيوكوندا بيلي.

في اليوم التالي، رغم أنهم استيقظوا جميعًا في الساعة المعتادة، شَعَرَ دميان لوبو من داخل كهفه بالاضطرابات السابقة للسَّفَر. ظلّ مفتوحًا باب الخزانة الخشبي الرئيس، حيث تُدخِلُ لوثيا ملابسَها، بينما كانت تُعدّ حقيبتها، هكذا لم تجدْ ضوضاء العالم الخارجي أيّ مقاومة، لتصلَ إلى دميان، باستثناء حائط خشب رقائقي، ألصق فيه أذنَيْه الاثنَتَيْن. بحسب ما حكى لإنياكي جابيلوندو، الذي أجبرَ دميان على العودة، كان بوسعه الاستماع لصوت رهيف مثل الشمّاعات التي تسحبها يد لوثيا.

- ضوضاء طفيفة جدًا، أظنّ - أشار الصُّحُفي.

- تخيّل: الصخب الناتج عن احتكاك عُلّيقة الشمّاعة بالحامل المعدني.

- قد أقول إنكَ اكتسبتَ مهارات الأعمى.

- وما العمل؟! تحسّرتُ لأني لم أثقبْ في الخشب الرقائقي ثقبًا صغيرًا، لأستغلّ فرصة مثل هذه لأرى لوثيا. فما أزال لا أعرف وجهها إلا من الصور.

المتوسط

خوان خوسيه مياس: (بالينثيا/ إسبانيا- ١٩٤٦) أحد أشهر الأصوات السَّرْدية في اللغة الإسبانية، وصاحب روايات «العقل هو الظلال» الفائزة بجائزة سيسامو عام ١٩٧٥، و«رؤية الغريق»(١٩٧٧)، «الحديقة الخالية»(١٩٨١) «الورقة المبلّلة»(١٩٨٣) «الحرف الميّت»(١٩٨٣) «فوضى الاسم» (١٩٨٦) هكذا كانت الوحدة (جائزة نادال ١٩٩٠) «العودة للبيت»(١٩٩٠) «أحمق، ميّت، ابن حرام وغير مَرئي» (١٩٩٥) «الترتيب الألفبائي» (١٩٩٨) «لا تنظرْ تحت السرير» (١٩٩٩) «امرأتان في براغ» (جائزة الربيع ٢٠٠٢) «لاورا وخوليو» (٢٠٠٦) «العالم» (٢٠٠٧، جائزة بلانيتا والجائزة الوطنية في الرواية) «ما أعرفه عن القرين» (٢٠١٠) «المرأة المَهووسة» (٢٠١٤). بالإضافة لمجموعاته القصصية «ربيع الحداد» (١٩٨٩) «إنها تتخيّل» (١٩٩٤) «مقالات أقصوصات» (٢٠٠١) «حكايات زناة حائرين» (٢٠٠٣) «الأشياء تنادينا» (٢٠٠٩). تُرجمت أعماله لأكثر من عشرين لغة.

يُعدّ مياس أبرز الكُتّاب الذين أعادوا المجدَ للخيال في الرواية الإسبانية، وأحد مُنقذيها من فخّ الكتابة المباشرة عن الحرب الأهلية، والتّورّط التامّ في الواقع، إذ خَلَقَ بعوالمه الأصيلة قدراتٍ فنّيّةً لتناوُل الواقع، هادمًا هذا الجدار الوَهْمي بين الواقع والخيال، ومُتوغّلًا في الذات الإنسانية لأكثر درجاتها عُمقًا.

منشورات المتوسط

بصدفة غريبة يتحول العالم لأمتار قليلة يسكنها البطل داخل خزانة ملابس، ومن هذا المكان الغريب يراقب عائلة غريبة. ومن هذا المكان يستحضر عالمه الخاص ويتعرف على العالم الخارجي الجديد عبر الاستماع. كلّ ما هو يومي ومعتاد يكتسب أهمية قصوى، كل التفاصيل الصغيرة ليست إلا تمثيلات للعالم الكبير. ومن الظل، من مكانه في الظل، يطرح البطل أسئلته الوجودية حول الاحتجاب، ويمر بتجربة صوفية لا مثيل لها. ومن هذا المكان الضيق يقدم مفهومًا أوسع للعالم، عبر تكنيك سردي مبتكر، ولغة شفافة كالماء.

ISBN 978-88-85771-06-2

المتوسط